

التَّائِيحُ الْإِسْلَامِيُّ

مَوَاقِفُ وَعِبَر

(١٤)

الأمويون والعباسيون والعثمانيون والدويلات المستقلة

الجزء الثاني

دكتور

عبد العزيز بن عبد الحميد

الأستاذ بكلية الدعوة وأصول الدين
بجامعة أم القرى

دار النشر والنشر

للنشر والتوزيع

جدة

دار النخبة

للطباعة والنشر والتوزيع

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى

١٤١٩هـ - ١٩٩٨م

رقم الإيداع : ١٩٩٧/٥٦٣٢

الترقيم الدولي

8 - 151 - 253 - 977

دار الدعوة للطبع والنشر والتوزيع

١ شارع منشأ - محرم بك - الإسكندرية

ت : ٤٩٠١٩١٤ - فاكس : ٥٩٥١٦٩٥

مكتب توزيع القاهرة ت : ٣٨٣٢٧٤٧

دار الأندلس الخضراء للنشر والتوزيع

حي السلامة - شارع عبد الرحمن السديري - مركز الزومان التجاري

ص.ب : ٤٢٣٤٠ - جدة : ٢١٥٤١ هاتف / فاكس : ٦٨٢٥٢٠٩

المملكة العربية السعودية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مواقف وعبد
فى
فتوح المغرب

١ - فتوحات عبد الله بن سعد -

كانت الفتوحات في أفريقية قد توقفت في عهد عمر رضي الله عنه بعد فتح مصر حيث لم يأذن لعمر بن العاص رضي الله عنه بالتوغل بجيوش المسلمين قبل رسوخ حكمهم وقوتهم في مصر ، واكتفى عمرو بتأمين حدود مصر من الناحية الغربية حيث فتح برقة وزويله من بلاد ليبيا والنوبة من بلاد السودان بقيادة عقبة بن نافع الفهري .

ولما تولى الخلافة عثمان رضي الله عنه ولّى على مصر عبد الله ابن سعد بن أبي السرح وكان عبد الله مشاركا في فتوح مصر حيث كان على ميمنة جيش عمرو بن العاص وولاه عمر بن الخطاب على صعيد مصر مع عمرو بن العاص ، وكان عمرو يبعثه في بعض الغزوات فاكتسب خبرة واسعة بتلك البلاد ، فلما ولاه عثمان على مصر وماوراءها استأذنه في غزو أفريقيا من ناحية الغرب فاستشار عثمان أهل الشورى من أصحاب رسول الله ﷺ فأشار أكثرهم عليه بالإقدام على ذلك ، وقد سار عبد الله بن سعد بجيش قوامه عشرون ألفا وانضم إليه عقبة بن نافع الذي كان مرابطا في ليبيا ، وجرت الموقعة الكبرى بين المسلمين والروم ومن معهم من البربر وكان الروم بقيادة جرجير ، وانتصر المسلمون عليهم كما تقدم .

واستمر عبد الله بن سعد في غزواته وفتوحه حتى أتم فتح المغرب

الأدنى [تونس] إلى أن توقف الجهاد بسبب الفتنة الكبرى التي كان فيها
قتل عثمان رضي الله عنه (١) .

* * *

(١) الكامل لابن الأثير ٣/ ٣٤ ، النجوم الزاهرة لابن تغري بَرْدِي ١/ ٧٩ وانظر قادة فتح
المغرب العربي لمحمود شيت خطاب ١/ ٥٤ .

٢ - فتوحات معاوية بن حُديج

كان أحد القادة في فتوح أفريقيا معاوية بن حُديج السكوني الكندي الذي اتخذ مقرا للمسلمين في تونس وثبت وجود المسلمين فيها، وذلك في عام أربعة وثلاثين للهجرة، ثم فتح مدينة بنزرت عام واحد وأربعين .

قال ابن عذاري : وفي سنة ٤٥ غزا معاوية بن حديج الكندي إفريقية ، وكانت حرباً كلاًها . قال الطبري : وذلك أن حُباحبة الرومي قدم على معاوية بن أبي سفيان ، فسأله أن يبعث معه جيشاً إلى إفريقية ، فوجه معاوية بن حُديج في عشرة آلاف مقاتل . فسار حتى انتهى إلى الإسكندرية ، فاستعمل عليها حباحبة الرومي . ومضى ابن حديج حتى دخل إفريقية . وكان معه عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنه وعن أبيه وعبد الله بن الزبير رضي الله عنه وعن أبيه ! وعبد الملك بن مروان ويحيى بن الحكم بن العاص ، وغيرهم من أشرف قريش فبعث ملك الروم إلى إفريقية بطريقاً يقال له نجفور في ثلاثين ألف مقاتل فنزل الساحل فأخرج إليه معاوية بن حديج عبد الله ابن الزبير في خيل كثيفة ، فسار حتى نزل على شرف عال ، ينظر منه إلى البحر، بينه وبين مدينة سوسة اثنا عشر ميلاً ، فلما بلغ ذلك نجفوراً، أقلع في البحر ، منهزماً من غير قتال . فأقبل ابن الزبير حتى نزل على باب سوسة ، فوقف على البحر ، وصلى بالمسلمين صلاة العصر ، والروم يتعجبون من جرأته ، فأخرجوا إليه خيلاً ، وابن الزبير مُقبلٌ على صلاته ، لايهوئُهُ خبرُها ، حتى قضى الصلاة ، ثم

ركب ، وحمل على الروم بمن معه ، فانكشفوا منهزمين ، ورجع ابن الزبير إلى معاوية بن حديج وهو بجبل القرن (١) .

وهكذا رأينا ذلك الزعيم الأفريقي يأتي إلى أمير المؤمنين ويطلب منه توجيه جيش لفتح أفريقية وتخليصها من ظلم الروم ، وهذا أثر من آثار العدالة الإسلامية ، والمعاملة الكريمة التي عامل بها المسلمون أبناء البلاد التي فتحوها ، فصار أعداؤهم الذين غزوهم عوناً لهم على عدوهم المشترك ، دولة الروم ، وماكان هناك من سبب لتفضيل حماية المسلمين إلا ماكانوا يتمتعون به من العدالة والأمانة والوفاء .

وفي هذا الخبر موقف لعبد الله بن الزبير رضي الله عنهما ، حيث لم يفزع من مجيء جيش الروم وهو يصلي بالناس ، بل أتم صلاته بطمأنينة ، وهذا دليل على شجاعته وقوة خشوعه وحضور قلبه مع الله تعالى ، وقد اشتهر بأداء الصلاة الكاملة .

وقد أصيب الروم بالرعب والذهول من هذا المشهد الغريب ، وكان ذلك من أسباب انهزامهم حينما حمل عليهم ابن الزبير بالجيش الإسلامي .

وأخرج ابن عبد الحكم من خبر عثمان بن صالح قال : فانتهى - يعني معاوية بن حديج - إلى قونية وهي موضع مدينة قيروان ، ثم مضى إلى جبل يقال له : القرن ، يعسكر إلى جانبه ، وبعث عبد الملك بن مروان إلى مدينة يقال لها : جلولاء في ألف رجل فحاصرها

(١) البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب ١٦/١ ، وجبل القرن في تونس وحوله انشا معاوية بن حديج مدينة القيروان .

أياما ، فلم يصنع شيئاً فانصرف راجعا ، فلم يسر إلا يسيرا حتى رأى في ساقية الناس غبارا شديداً ، فظن أن العدو قد طلبهم فكرر جماعة من الناس لذلك ، وبقي من بقي على مصافهم ، وتسرع سرعان الناس ، فإذا مدينة جلولاء قد وقع حائطها ، فدخلها المسلمون وغنموا ما فيها . وانصرف عبد الملك إلى معاوية ابن حديج ، فاختلف الناس في الغنيمة فكتب في ذلك إلى معاوية بن أبي سفيان . فكتب أن العسكر رده للسرية ، فقسم ذلك بينهم ، فأصاب كل رجل منهم لنفسه مائتي دينار، وضرب للفرس بسهمين ، ولصاحبه بسهم ، قال عبد الملك : فأخذت لفرسي ولنفسي ستمائة دينار، واشترت بها جارية^(١) .

ولم تقتصر جهود معاوية بن حديج على الغزو البري فقد وجه حملة بحرية بقيادة عبد الله بن قيس إلى جزيرة صقلية ، وفي ذلك يقول ابن عذاري : وأغزى معاوية بن حديج جيشا في البحر إلى صقلية في مائتي مركب فسبوا وغنموا ، وأقاموا شهرا ثم انصرفوا إلى أفريقية بغنائم كثيرة ورقيق وأصنام منظومة بالجوهر ، فاقتسموا فيهم ، وبعث ابن حديج بالخمسة إلى معاوية بن أبي سفيان^(٢) .



(١) فتوح مصر وأخبارها لابن عبد الحكم / ١٣١ - ١٣٢ ، وانظر البيان المغرب في

أخبار الأندلس والمغرب ١/ ١٨ .

(٢) البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب ١/ ١٦ - ١٧ .

٣ - فتوحات عقبة بن نافع الأولى -

أما الرجل الذي اقترن باسمه فتح بلاد المغرب ونال في ذلك شهرة واسعة فهو عقبة بن نافع الفهري القرشي ، وهو من مواليد العهد النبوي واختلف في صحبته ، وقال ابن الأثير : لاتصح له صحبة^(١).

وقد بدأ جهاده في فتوح مصر مع عمرو بن العاص رضي الله عنه ، واكتسب خبرة حربية عالية من صحبته لعمرو الذي كان يُعدُّه للمهمات الحربية .

وقد بعثه عمرو على رأس جيش من المسلمين إلى « زويلة » وذلك في سنة إحدى وعشرين ، فأصبح مابين برقة وزويلة من بلاد ليبيا سلماً للمسلمين .

وفي هذه السنة بعثه عمرو إلى بلاد النوبة جنوب مصر ، فالتقى المسلمون مع أهلها في قتال شديد ، ثم انصرف عقبة عنهم ، وبذلك كان أول من مهد لفتح بلاد النوبة من المسلمين .

كما أنه شارك في بعض غزوات أفريقيا تحت إمرة عبد الله بن سعد بن أبي السرح .

ومما يُذكر له رباطه مع جيشه في برقة عدة سنوات لحماية دولة الإسلام من الغرب ، وأصبحت تلك البلاد قاعدة لفتح البلاد الأفريقية ، وقد قام آنذاك بعدة غزوات برية وبحرية لتأمين البلاد وتأديب بعض المتمردين الذين ينقضون العهد^(٢) .

(١) أسد الغابة ٣ / ٤٣٠ .

(٢) انظر قادة فتح المغرب العربي ٩٤ - ٩٥ .

مغامرات في جوف الصحراء :

من غزوات عقبة بن نافع المشيرة لما قام به من الغارة على بعض بلدان الصحراء الكبرى ، وفي ذلك يقول عبد الرحمن بن عبد الحكم فيما رواه عن الليث بن سعد : ثم خرج إلى المغرب بعد معاوية بن حديج عقبة بن نافع الفهري سنة ست وأربعين ، ومعه بسر بن أبي أرطاة ، وشريك بن سمي المرادي ، فأقبل حتى نزل بمغمداش من سرّت قال : وبلغه أن أهل ودّان قد نقضوا عهدهم ، ومنعوا ما كان بسر بن أبي أرطاة فرض عليهم . وكان عمرو بن العاص قد بعث إليها بسرًا قبل ذلك ، وهو محاصر لأهل طرابلس فافتتحها . فخلف عقبة بن نافع جيشه هنالك واستخلف عليهم عمر بن علي القرشي وزهير بن قيس البلوي . ثم سار بنفسه وبمن خلف معه أربعمئة فارس وأربعمئة بعير وثمانمئة قربة . حتى قدم ودان فافتتحها . وأخذ ملكهم فجذع أذنه . فقال : لِمَ فعلت هذا بي وقد عاهدتني ؟ فقال عقبة : فعلت هذا بك أدبا لك ، إذا مسست أذنك ذكرته ، فلم تحارب العرب .

قال : ثم سألهم عقبة : هل من ورائكم أحد؟ فقبل له : جرّمه . وهي مدينة فزان العظمى . فسار إليها ثمانى ليال من ودان . فلما دنا منها أرسل فدعاهم إلى الإسلام ، فأجابوا فنزل منها على ستة أميال ، وخرج ملكهم يريد عقبة . وأرسل عقبة خيلا فحالت بين ملكهم وبين موكبه ، فأمشوه راجلا حتى أتى عقبة وقد لغب . وكان ناعما فجعل ييصق الدم . فقال له : لِمَ فعلت هذا بي وقد أتيتك طائعا ؟ فقال عقبة : أدبا لك إذا ذكرته لم تحارب العرب .

قال : ثم مضى على جهته من فوره ذلك إلى قصور فزان ، فافتتحها قصرا قصرا ، حتى انتهى إلى أقصاها ، فسألهم هل من ورائكم أحد ؟ قالوا : نعم . أهل خاوار ، وهو قصر عظيم على رأس المفارة ، في وعورة على ظهر جبل ، وهو قصبة كوار ، فسار إليهم خمس عشرة ليلة ، فلما انتهى تحصنوا . فحاصرهم شهرا . فلم يستطع لهم شيئا . فمضى أمامه على قصور كوار فافتتحها ، حتى انتهى إلى أقصاها ، وفيه ملكها ، فأخذه فقطع أصبعه . فقال : لم فعلت هذا بي ؟ قال : أدبا لك إذ أنت نظرت إلى أصبعك لم تحارب العرب .

قال : فسألهم هل من ورائكم أحد ؟ فقال الدليل : ليس عندي بذلك معرفة ولا دلالة . فانصرف عقبة راجعا ، فمر بقصر خاوار ، فلم يعرض له ، ولم ينزل بهم ، وسار ثلاثة أيام . فأمنوا ، وفتحوا مدينتهم ، وأقام عقبة بمكان اسمه اليوم ماء فرس ، ولم يكن به ماء ، فأصابهم عطش شديد أشفى منه عقبة وأصحابه على الموت ، فصلى عقبة ركعتين . ودعا الله . وجعل فرس عقبة يبحث بيديه في الأرض حتى كشف عن صفاة فانفجر منها الماء ، فجعل الفرس يمص ذلك الماء ، فأبصره عقبة ، فنادى في الناس أن احتفروا فحفروا سبعين حسيا ، فشربوا واستقوا فسمى لذلك ماء فرس . ثم رجع عقبة إلى خاوار ، من غير طريقه التي كان أقبل منها ، فلم يشعروا به حتى طرقهم ليلا ، فوجدهم مطمئنين . قد تمهدوا في أسرابهم . فاستباح ما في المدينة من ذرياتهم ، وأموالهم ، وقتل مقاتلتهم . ثم انصرف

راجعا ، فسار حتى نزل بموضع زويلة اليوم ، ثم ارتحل حتى قدم على
عسكره بعد خمسة أشهر ، وقد جمعت خيولهم وظهرهم ، فسار
متوجها إلى المغرب وجانب الطريق الأعظم ، وأخذ إلى أرض مزاة ،
فافتتح كل قصر بها ثم مضى إلى . . . فافتتح قلاعها وقصورها ، ثم
بعث خيلا إلى غدامس ، فافتتحت غدامس ، فلما انصرفت إليه خيله
سار إلى قفصة ، فافتتحها وافتتح قسطلية (١) .

وهكذا كان عقبة على رأس هذه الحملة المغامرة وكان بإمكانه أن
يبعث قائداً غيره وأن يبقى مع جيشه في أمان ، ولكنه كان من قوم
يتسابقون إلى المعالي ، وتكون ساعات الأتس والراحة عندهم بين
صليل السيوف وصهيل الخيول وقطع الفيافي ، فهو لا يبرُّ غيره بعمل
تهواه نفسه ويبتظر من ورائه رضوان الله تعالى والسعادة الأخروية .

أما مسوغ هذه المغامرة بهذا العدد القليل فهو كون الجيش الخفيف
أسرع تحركا في الصحراء ، ولكون البلاد الصحراوية تخلو عادة من
التجمعات الكبيرة ، ويصعب الإمداد فيها لبعد المسافات .

وهكذا كان عقبة بن نافع ناجحا في تخطيطه الحربي كما كان
ناجحا في سياسته الإدارية ، وإن أهم عوامل نجاحه قربه من الله
تعالى واعتماده عليه في تفريج الكربات وتذليل الصعوبات .
إنشاء مدينة القيروان :

لما انتهى عقبة بن نافع من غزواته المذكورة أراد أن يتخذ للمسلمين
مكانا يستقرون فيه لا يشركهم فيه غيرهم ، ليكون أمانا لهم ،

(١) فتوح مصر و أخبارها / ١٣٢ - ١٣٣ باختصار .

ولينطلقوا منه في أعمالهم الجهادية ، وفي ذلك يقول إبراهيم بن القاسم فيما ذكره ابن عذاري : ووصل عقبة بن نافع الفهري إلى أفريقية في عشرة آلاف من المسلمين ، فافتتحها ، ودخلها ، ووضع السيف في أهلها ، فأفنى من بها من النصارى . ثم قال : إن أفريقية ، إذا دخلها إمامٌ ، أجابوه إلى الإسلام فإذا خرج منها ، رجع من كان أجاب منهم لدين الله إلى الكفر فأرى لكم يامعشر المسلمين أن تتخذوا بها مدينة تكون عزاً للإسلام إلى آخر الدهر ، فاتفق الناس على ذلك ، وأن يكون أهلها مرابطين ، وقالوا : نقرب من البحر ليتم لها الجهاد والرباط ، فقال عقبة : إني أخاف أن يطرقها صاحب القسطنطينية بغتة فيملكها ولكن اجعلوا بينها وبين البحر مالا يدركها صاحب البحر إلا وقد علم به ، وإذا كان بينها وبين البحر مالا يوجب فيه التقصير للصلاة^(١) ، فهم مرابطون ، فلما اتفق رأيهم على ذلك قال : قربوها من السبغة فإن دوابكم الإبل ، وهي التي تحمل أثقالكم ، فإذا قرعنا منها لم يكن لنا بدء من الغزو والجهاد ، حتى يفتح الله لنا منها الأول فالأول ، وتكون إبلنا على باب قصرنا في مراعيها ، آمنة من عادية البربر والنصارى .

قال : وفي سنة إحدى وخمسين شرع عقبة في ابتداء بناء مدينة القيروان ، وأجابه العرب إلى ذلك . ثم قالوا : إنك أمرتنا بالبناء في شعار وغياض^(٢) لا ترام . ونحن نخاف من السباع والحيات وغير

(١) يعني أن تكون أدنى من المسافة التي تقصر فيها الصلاة .

(٢) الشعار الشجر الملتف ، والغياض الأراضي التي يجتمع فيها الماء فينبث فيها الشجر .

ذلك! وكان في عسكره ثمانية عشر رجلاً من أصحاب رسول الله ﷺ، وسائرهم من التابعين . فدعا الله - سبحانه - وأصحابه يؤمنون على دُعائه ، ومضى إلى السبخة وواديها ، ونادى : أيتها الحيات والسباع نحن أصحاب رسول الله ﷺ . فارحلوا عنا فإننا نازلون ومن وجدناه بعد هذا قتلناه ، فنظر الناس بعد ذلك إلى أمر مُعْجَب ، من أن السباع تخرج من الشَّعْرَاء (١) وهي تحمل أشبالها سمعاً وطاعةً ، والذئب يحمل جرّوه ، والحية تحمل أولادها . ونادى في الناس : كُفُّوا عنهم ، حتى يرحلوا عنها ، فخرج مافيها من الوحش والسباع والهوام والناسُ ينظرون إليها ، حتى أوجعهم حرُّ الشمس ، فلما لم يروا منها شيئاً، دخلوا ، فأمرهم أن يقطعوا الشجر ، فأقام أهل أفرقية بعد ذلك أربعين عاماً لا يرون بها حياةً ، ولا عقرباً ، ولا سبُعاً . قال : فاخترط عُقبة أولاً دار الإمارة ، ثم أتى إلى موضع المسجد الأعظم فاخترطه ، ولم يُحدث فيه بناء . وكان يصلي فيه وهو كذلك فاختلف الناس عليه في القبلة وقالوا : إن جميع أهل المغرب يضعون قبلتهم على قبلة هذا المسجد فأجهد نفسك في تقويمها ، فأقاموا أياماً ينظرون إلى مطالع الشتاء والصيف من النجوم ومشارق الشمس ، فلماً رأى أمرهم قد اختلف بات مغموماً، فدعا الله - عز وجل - أن يُفَرِّجَ عنه . فأتاه آت في منامه فقال له : إذا أصبحتَ فخذ اللواء في يدك ، واجعله على عُنُقِكَ . فلإنك تسمع بين يديك تكبيراً لا يسمعه أحدٌ من المسلمين غيرك . فانظر الموضع الذي ينقطع عنك فيه التكبير فهو قبلتك ومحرابك ، وقد رضي الله لك أمر هذا العسكر وهذا

(١) أي من الشجر .

المسجد وهذه المدينة ، وسوف يعز الله بها دينه ، ويذلُّ بها من كفر به ، فاستيقظ من منامه وهو جنزَعٌ ، فتوضأ للصلاة وأخذ يصلي وهو في المسجد ومعه أشرافُ الناس ، فلما انفجر الصبح وصلى ركعتي الصبح بالمسلمين إذا بالتكبير بين يديه ، فقال لمن حوله : أسمعون ما أسمع؟ فقالوا: لا ، فعلم أنَّ الأمر من عند الله فأخذ اللواء فوضعه على عنقه ، وأقبل يتبع التكبير حتى وصل إلى موضع المحراب فانقطع التكبير فركز لواءه ، وقال : هذا محرابكم فاقتدى به سائر مساجد المدينة .

ثم أخذ الناس في بناء الدُّور والمساكن والمساجد وعمرت ، وشد الناسُ إليها المطايا من كل أفق وعظم قدرها . وكان دورها ثلاثة عشر ألف ذراع وستمائة ذراع حتى كمل أمرها .

وكان عقبة خير والٍ وخَيْرَ أميرٍ ، مُسْتَجَابُ الدعوة (١) .

وإننا أمام هذا الخبر نلاحظ عدداً من المواقف والعبر ، فمن ذلك :
أولاً : أن عقبة بن نافع - رحمه الله تعالى - قد أصاب الرأي السديد حينما اتخذ مكاناً آمناً يكون مأوى للمجاهدين المرابطين ، ومن تحت حراستهم من الذراري والمتاع .

وفي الاحتياطات الأمنية التي ذكرها في مسوغ إبعاد المكان عن البحر دلالة على عمق إدراكه الحربي ، وتخطيطه لمواجهة العدو حتى لا يؤخذ المسلمون على غرة .

(١) البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب ١٩/١ - ٢١ .

وانظر تاريخ الطبري ٥/ ٢٤٠ ، والكامل لابن الأثير ٣/ ٢٣٠ وفتوح مصر لابن عبدالحكم ١٣٣ .

وفي حرص بعض أفراد ذلك الجيش على القرب من البحر مع خطورة ذلك دلالة على صدق إيمانهم وقوة تقواهم حيث كانوا يرجون ثواب المرابطين على البحر لمواجهة المباشرة للعدو .

ولكن القائد الذي يشعر بمسئوليته عمن تحت ولايته كما يشعر بمسئوليته عن مستقبل الإسلام ودولته لا يندفع مع حماس بعض أقوياء الإيمان ، بل ينظر لمواضع خطئه ونتائج عمله قبل الإقدام ، وكون طائفة من الجيش يقبلهم الله تعالى شهداء عنده خير كبير لهم ، وهذا من أركى ما يتنافس فيه السابقون ، ولكن يجب على القائد قبل ذلك أن ينظر إلى الأمور التي تقوي دولة الإسلام وتُظهر عزة المسلمين، في الوقت الذي يحرص فيه على كيد الكفار والنكاية بهم، وحيث إن استشهاد طائفة من المسلمين يضعف من شأنهم ويقوي جانب أعدائهم، ويجرؤهم على المسلمين فإن قصد الشهادة وإن كان نبيلاً لايجوز للقادة أن يتخذوه هدفاً لهم ، ولكن إذا وقع ضرورة فإن من واجب القادة أن يغتنموه في رفع معنويات الجنود ودفعهم إلى النكاية بالأعداء .

ومع هذه الملاحظة المهمة فلإننا نجد عقبة لا يكسر مافي نفوس هؤلاء المتحمسين من هذه الرغبة السامية نحو الحصول على ثواب المرابطين في نحر العدو ، بل يجمع لهم بين الأمرين : اتخاذ المكان الآمن من مفاجآت العدو ، مع قربيه من البحر إلى الحد الذي لايعتبر مسافة قصر ، وهذا يجعلهم جميعاً من المرابطين في سبيل الله تعالى .

وإن هذا التصرف الحكيم يعطينا فكرة عما كان يتمتع به عقبة من

بُعد النظر ، مع الإبقاء على معنوية أفراد الجيش ، والحفاظ على بروز شخصيتهم ، حتى يكون عطاؤهم في الجهاد مفتوحا ، لاتحدّه العوائق ، ولا تضعفه المثبطات .

ثانياً : فيه عبرة بليغة فيما حدث من عقبة حينما نادى تلك الوحوش والدواب فاستجابت له وغادرت ذلك المكان ، وهذه كرامة من الله تعالى يكرم بها أوليائه لما يريد بهم من نصر الإسلام ونشره في الأرض ، حيث أسمع تلك الدواب كلام عقبة وأوقع في قلوبها الخوف منه ، وقدر لها أن تسمع وتطيع كما لو كانت ذات عقل وإدراك .

وقد رأى ذلك قبيل كثير من البربر فأسلموا ، كما ذكر ابن الأثير في روايته (١) .

هذا وقد حمل بعض المحققين هذا الخبر على أنه من الأساطير التي نسجها الرواة حول عقبة ، وعللوا هذا الخبر بأن تلك الدواب فزعت لما سمعت ضجيج الجيش الإسلامي فحملت أولادها وولّت هاربة .

وهذا التأويل من عجائب بعض المحققين حيث يُغفلون تفكيرهم الصحيح من أجل ردّ ما لا يؤمن به العقل المجرد ، كما أنهم يستغفلون المؤرخين الذين رووا هذه الحادثة وأمثالها على أنها من الأمور الخارقة للعادة ، ويتهمونهم بالسذاجة لتحويلهم الوقائع المعتادة في حياة الناس إلى ما يشبه الأساطير ، فإن التفكير الصحيح يرى أن التأويل الذي

(١) الكامل ٣ / ٢٣٠ .

اعتمدوه لا ينسجم مع العقل السليم ، لأن الوحوش والدواب البرية إذا تعرضت للفرع تأوي إلى جحورها الآمنة لتستخفي بها ولا تلجأ إلى الهرب حتى لا تتعرض للأذى مما فزعت منه ، ثم إنه لو حصل خلاف الغالب من المعتاد فهربت تلك الدواب من أمر عادي وهو فزعها من الجيش لم يكن هناك ما يدعو إلى عجب البربر وانبهارهم الذي حملهم على الدخول في الإسلام من أجل ذلك ، ولم يكن في ذلك ما يحمل طائفة من المؤرخين على رواية هذه الحادثة الغريبة .

وقد جاء في إحدى روايات ابن عبد الحكم عن الليث بن سعد قال : فحدثني زياد بن العجلان : أن أهل أفريقية أقاموا بعد ذلك أربعين سنة ولو التمسَتْ حية أو عقرب بألف دينار ما وجدت .

ثالثاً : عبرة أخرى في تلك الرؤيا التي رآها عقبة بن نافع في أمر تحديد القبلة وماتلاً ذلك من سماعه التكبير الذي لم يسمعه من حوله ، وهذه كرامة أخرى لهذا الولي الصالح فرج الله تعالى بها عن المسلمين كربة كانوا يعانون منها من عدم مقدرتهم على تحديد القبلة بدقة ، وهذا هو أحد المقاصد التي تظهر فيها الكرامات على أيدي أولياء الله الصالحين ، وقد كان عقبة مستجاب الدعوة ، فاستجاب الله تعالى دعاءه في تفريج همه وهموم المسلمين في هذا الأمر .



٣- فتوحات أبي المهاجر -

أبو المهاجر هو دينار مولى مسلمة بن مُخَلَّد الأنصاري، وكان معاوية بن أبي سفيان قد وُلِّيَ على مصر مسلمة بن مخلد، وكان أبو المهاجر قد تعلم من مسلمة كثيراً من أمور الحرب والإدارة، ورأى فيه كفاءة فولاه على أفريقية التي كانت تطلق على البلاد التي تقع غرب مصر، وكان مركزها القيروان في تونس، وكان ذلك في عام خمسة وخمسين للهجرة، وعَزَلَ عنها عقبة بن نافع الفهري بعد ولايته الأولى .

ومن مواقف أبي المهاجر الجهادية أنه قاد الجيش الإسلامي إلى «قرطاجنة» عاصمة الروم في شمال أفريقية ^(١) فحاصرها وتحصن الروم بأسوارها العالية ، فشدد عليهم أبو المهاجر الحصار ، ولما علموا بأن المسلمين لن يبرحوا حتى يحققوا هدفهم بفتح قرطاجنة طلبوا الصلح ، فصالحهم أبو المهاجر على أن يُخلو له جزيرة « شريك » ^(٢) التي كان الروم يتخذونها مركزاً لحشد جيوشهم فيها قبل مهاجمة المسلمين .

وقد أشاد اللواء الركن محمود شيت خطاب بهذا الصنيع من أبي المهاجر واعتبر ذلك تخطيطاً حربياً عالياً حيث كسب المسلمون موقعاً مهماً يستطيعون من خلاله أن يراقبوا تحركات الروم ^(٣) .

(١) وهي مدينة قديمة على ساحل البحر الأبيض بينها وبين تونس اثنا عشر ميلاً - معجم البلدان ٥٢/٧ - .

(٢) وهي واقعة بين سوسة وتونس كما في معجم البلدان وذكر محمود شيت خطاب أنها شبه جزيرة .

(٣) قادة فتح المغرب ١٣٩/١ .

ومن مواقفه أنه أول من أقام مرابطاً بجيشه لمدة سنتين في مدينة «ميلة» بين المغرب الأدنى والأوسط ، وذلك بعد أن فتحها ، وكان القواد قبله يغيرون ويفتحون البلاد ثم يرجعون ، وقد قام بجهود طيبة خلال تلك المدة في نشر الإسلام بين البربر .

وكانت الزعامة في المغربين الأوسط والأقصى لقبيلة «أوربة» من البربر وكان زعيمها «كسيلة بن لمزم» وكان البربر يجلبونه ويحبونه ، فلما رأى أبا المهاجر قد رابط في ميلة «علم أنه لا بد أن يسير لافتتاح المغرب الأوسط والأقصى ، فصار يجمع الجيوش لصد المسلمين فاجتمع له جيش من البربر والروم .

وسمع أبو المهاجر بجمعه فسار إليه في مكان عسكره بتلمسان والتقى الجيشان هناك ، ودارت بينهما معركة حامية ، انتصر فيها المسلمون ، وأسِرَ كسيلة فحُمِلَ إلى أبي المهاجر فأحسن إليه وقربه وعامله معاملة الملوك ، وأظهر كسيلة الإسلام فاستبقاه أبو المهاجر واستخلصه (١) .

وفي هذا الخبر دلالة على نجاح أبي المهاجر في القيادة الحربية حتى استطاع التغلب على ذلك الخصم المطاع الذي اجتمع له الروم والبربر . ثم إن فيه دلالة على اهتمامه بالدعوة إلى الإسلام حيث اهتم بإسلام ذلك الزعيم البربري ، وبإسلامه يمكن أن ينجذب قومه إلى الإسلام ، كما أنه يدل على نجاحه في الدعوة حيث استخدم في ذلك الجانب الأخلاقي ، وذلك بحسن التعامل وإكرام الزعماء المتبوعين تألفاً لقلوبهم وقلوب أقوامهم .

(١) فتوح مصر / ١٣٣ - ١٣٤ ، قادة فتح المغرب ١ / ١٣٩ .

ومما يذكر لأبي المهاجر أنه أول أمير للمسلمين وطئت خيله المغرب الأوسط .

وبعد هذه الرحلة الناجحة في الدعوة والجهاد عاد أبو المهاجر إلى القيروان ولما تولى يزيد بن معاوية الخلافة عزل أبا المهاجر عن ولاية أفريقية وأعاد إليها عقبة بن نافع الفهري ، وقام عقبة برحلته الجهادية الطويلة كما سيأتي .

وكان بصحبته أبو المهاجر ، وكان أبو المهاجر يسدي إليه النصائح القيمة في مجال الإدارة والحرب بالرغم مما حدث بينهما من الجفوة ، ومن أبرز هذه النصائح إشارته عليه بإكرام زعيم البربر القوي كسيلة ، ومحاولة تأليفه ليقى على الإسلام وكان قد أسلم على يد أبي المهاجر ، ولكن عقبة أهان ذلك الزعيم ، حيث أمره يوما أن يسلم شاة بين يديه ، فدفعها كسيلة إلى غلمانها ، فأرادها عقبة على أن يتولاها بنفسه وانتهره ، فقام إليها كسيلة مغضبا وجعل كلما دس يده في الشاة مسح بلحيته ، وبلغ ذلك أبا المهاجر فبعث إليه ينهائه ويقول : كان رسول الله ﷺ يتألف جبابرة العرب وأنت تعمد إلى رجل جبار في قومه وبدار عزه حديث عهد بالشرك فتفسد قلبه ؟ توثق من الرجل فإني أخاف فتكه .

فتهاون به عقبة ، فلما انصرف غزوه نكث البربر ماكانوا عليه وأقبلت النفرة إلى عقبة ، فقال له أبو المهاجر : عاجله قبل أن يجتمع أمره .

واغتنم كسيلة فرصة انفراد عقبة في بعض جيشه كما سيأتي فقال

عقبة لأبي المهاجر : الحق بالقيروان وقم بأمر المسلمين وأنا أغتسم الشهادة ، فقال أبو المهاجر : وأنا أغتسم الشهادة مثلك ، فكسر كل واحد منهما غمد سيفه وكسر المسلمون أغماد سيوفهم وقتلوا حتى قتلوا (١) .

ومن هذا الخبر يتبين لنا تفوق أبي المهاجر من ناحية السياسة والإدارة ، فإنه قد خاض معركة كبرى واحدة دوخ بها الروم والبربر ، وخضع له البربر ، ودخل بعض زعمائهم في الإسلام وأبرزهم كسيلة ، ودخل كثير من قومهم في الإسلام ، ووفر أبو المهاجر بذلك جهوداً كبيرة لا بد من بذلها في فتح بلاد المغرب لو بقي أولئك البربر على كفرهم .

ولاشك في أن عقبة حينما أهان ذلك الزعيم البربري لم يكن يعتقد بصحة إسلامه ، إذ أن عقبة كان في غاية التواضع للمسلمين وكان اجتهاده يقضي بمحاولة إذلال ذلك الرجل حتى يتحطم طغيانه وتهون مكانته في نفوس قومه فلا يستطيع بعد ذلك أن يستنفرهم لحرب ضد المسلمين .

ولكنه أخطأ في اجتهاده لأن قوم ذلك الرجل كانوا حديثي عهد بإسلام ، ولم يدخلوا فيه عن قناعة وإنما من باب الاستسلام والخضوع للأقوى .

ولم يكن وضع كسيلة في تظاهره بالإسلام خافياً على أبي

(١) قادة فتح المغرب ١٣٧/١ - ١٤٢ عن الاستقصاء ٧١/١ - ٧٢، رياض النفوس ١ /

٢٦ - ٢٧ وانظر النجوم الزاهرة ١٥٨/١ - ١٥٩ .

المهاجر، وإنما قبل منه ظاهر أمره واستبقاه في جيشه ليأمن شره، ثم لعل إسلامه الظاهري يتحول إلى إيمان باطني مع مخالطة المسلمين ومعاملتهم الكريمة، وكلام أبي المهاجر السابق يدل على ذلك حيث شبه كسيلة بجبابرة العرب الذين كان رسول الله ﷺ يتألفهم للإسلام، وحيث قال لعقبة بعدما جرى منه ماجرى: توثق من الرجل فإني أخاف فتكه .

ومهما كان لظن عقبة فيه من احتمال في عدم الصدق في الولاء فإن كسبه وبقائه في جيش المسلمين وتحت سلطتهم أولى بكثير من معاداته وإتاحة الفرصة له لضرب المسلمين من مكامن الخطر، وهو الذي صحبهم وحاز على شيء من ثقتهم .

وسيتبين لنا في مواقف فتوح السند المكاسب الكبيرة التي حصل عليها المسلمون من حسن تصرف محمد بن القاسم في معاملة زعماء تلك البلاد ، حيث أصبح من دخل منهم في الإسلام أو حالف المسلمين سنداً قوياً لجيش المسلمين .

ومن موقف عقبة المذكور تظهر لنا نتيجة مهمة من نتائج العمل بسنن الإسلام التي من أهمها العمل بالشورى وأخذ رأي أهل الحل والعقد خاصة في الأمور المهمة .

وعلى أي حال فإن كلا القائدين كان مجتهداً في تصرفه ولا يظن بواحد منهما أنه كان يعمل لصالح نفسه أو لصالح عشيرته وإنما كان رائدهما النظر لمصلحة الإسلام والمسلمين، ولكن كان اجتهد أبي المهاجر أوفق إلى الصواب في هذه القضية. رحمهما الله وأجزل مثوبتهما .

* * *

٤ - فتوحات عقبة الثانية -

بعد اكتمال بناء القيروان عام خمسة وخمسين عَزِلَ عقبة بن نافع عن ولاية أفريقية ، ثم أُعيد إليها عام اثنين وستين فقام برحلته الجهادية المشهورة التي قطع فيها مايزيد على ألف ميل من القيروان في تونس إلى ساحل المحيط الأطلسي في المغرب .

خرج عقبة بأصحابه الذين قدم بهم من الشام وعددهم عشرة آلاف إلى جانب عدد كبير انضم إليهم من القيروان واستخلف على من بقي زهير بن قيس البلوي ، ودعا بأولاده قبل سفره وقال لهم : إني قد بعث نفسي من الله عز وجل فلا أزال أجاهد من كفر بالله - ثم قال - يابني أوصيكم بثلاث خصال فاحفظوها ولا تضيعوها : إياكم أن تملثوا صدوركم بالشعر وتتركوا القرآن ، فإن القرآن دليل على الله عز وجل ، وخذوا من كلام العرب ما يهتدي به الليب ويدلكم على مكارم الأخلاق ، ثم انتهوا عما وراءه ، وأوصيكم أن لا تُداینوا ولو لبستم العباء فإن الدين ذلٌّ بالنهار وهم بالليل ، فدعوه تسلم لكم أقداركم وأعراضكم وتبّق لكم الحرمة في الناس مابقيتم ، ولا تقبلوا العلم من المغرورين المرخصين فيجّهلوكم دين الله ويفرقوا بينكم وبين الله تعالى ، ولا تأخذوا دينكم إلا من أهل الورع والاحتياط فهو أسلم لكم ، ومن احتاط سلم ونجا فيمن نجا . - ثم قال - : عليكم سلام الله وأراكم لاترونني بعد يومكم هذا - ثم قال - : اللهم تقبل نفسي في رضاك واجعل الجهاد رحمتي ودار كرامتي عندك .

وهكذا ما أن وطئت أقدام عقبة أرض القيروان حتى عزم على

الخروج للجهاد غير هيب ولا متردد ، ومما يدل على مبلغ حبه للجهاد وهيامه به قوله في وصيته لأولاده « إني قد بعث نفسي من الله عز وجل فلا أزال أجاهد من كفر بالله » ، فهو قد باع نفسه من الله عز وجل ، واشتاق إلى الثمن العظيم الغالي ﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمَ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بَبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ [التوبة: ١١١].

فجعل عمله الذي نذر حياته لأجله هو الجهاد ، ونصب أمام عينيه الهدف السامي ، وهو إعلاء كلمة الله تعالى في الأرض .

وكان السنوات الثمان التي حيل فيها بينه وبين الجهاد كانت سجنا طويل الليالي عظيم الأثقال . . حتى إذا أفرج عنه وصارت إليه القيادة سارع إلى حشد القوى والخروج في سبيل الله تعالى .

فماذا سننتظر من رجل قيادي وجهادي من الدرجة الأولى وقد مكَّن من ممارسته هوايته العظمى بعد الحبس الطويل ؟ إنه سيسخر كل طاقاته التي وهبها الله له من أجل بلوغ غايته السامية .

ولقد وفق عقبة يجنود يحبون فيه روح المغامرة والجهاد المتواصل ، فبذلوا من طاقاتهم ما يرضي طموحه وشوقه إلى الإنجاز السريع والعطاء المثمر .

وإننا لنجد في وصيته المذكورة لأولاده فوائد جليhle ، فقد أوصاهم بثلاث وصايا :

الوصية الأولى : الاهتمام بانتقاء العلم واختيار أطيبه ، وذلك بالاهتمام أولاً بالقرآن الكريم ، حيث إنه الكتاب الذي يدل على الله عز وجل ، وما أبلغه من وصف يهدي إلى بلوغ الهدف السامي الذي يسعى إليه كل مؤمن ، وهو ابتغاء رضوان الله تعالى ونعيمه ، ولاشك أن سنة رسول الله ﷺ مما يدخل في مقاصد القرآن الكريم لقوله تعالى ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ [الحشر: ٧] .

ثم انتقاء الطيب من كلام العرب الذي يرشد إليه العقل السليم ويحث على مكارم الأخلاق .

الوصية الثانية : البعد عن الاستدانة ولو دفع إليها الفقر لأن الدين ذلٌّ بالنهار حيث يدفع المستدين إلى بعض مواقف الذل أمام الدائن ومن لهم علاقة به ، وهم بالليل حيث يخلو المستدين إلى نفسه فيتذكر حقوق الناس عليه .

الوصية الثالثة : التحري في تلقي العلم ، وذلك باختيار العلماء الربانيين أهل الورع والتقوى ، والبعد عن العلماء المغرورين أهل الدنيا والجاه ، فإنهم يزيدون المتعلم جهلاً حيث يبعده عن حقيقة العلم وثمرته وهي تقوى الله عز وجل .

ونجد عقبة في نهاية وصيته لأولاده يسلم عليهم سلام المودع ، مما يدل على استماتته في سبيل الله تعالى ، ثم يقول : « اللهم تقبل نفسي في رضاك ، واجعل الجهاد رحمتي ودار كرامتي عندك » .

وبهذا الاهتمام الكبير نجح عقبة بن نافع رحمه الله في فتوحاته

حيث جعل الجهاد قضيته الكبرى في هذه الحياة .

وقد سار عقبة في جيش عظيم حتى انتهى إلى مدينة « باغاية » لايدفعه أحد ، والروم يهربون من طريقه يمينا وشمالا ، فحاصرها وقد اجتمعوا بها وقاتلهم قتالا شديداً ، فانهزموا عنه وقتل فيهم قتلا ذريعاً ، وغنم منهم غنائم كثيرة ، واحتفى المنهزمون داخل أسوار المدينة ، فكره المقام عليهم .

ورحل عقبة فنزل على « تلمسان » وهي من أعظم مدائنهم فانضم إليها من حولها من البربر والروم ، فخرجوا إليه في جيش ضخم ، والتحم القتال ، وثبت الفريقان حتى ظن المسلمون أن في تلك المعركة فناءهم ولكن الله من عليهم بالصبر ، فكانوا في ذلك أشد وأصبر من أعدائهم فهاجموا الروم هجوماً عنيفاً حتى ألجئوهم إلى حصونهم فقاتلوهم إلى أبوابها وأصابوا منهم غنائم كثيرة .

واستمر عقبة في سيره نحو المغرب الأقصى حتى وصل بلاد الزاب فسأل عن أعظم مدينة في بلاد الزاب ف قيل له « أربّه » وهي دار ملكهم وكان حولها ثلاثمائة وستون قرية كلها عامرة ، فامتنع بها من كان هناك من الروم وأهل المدينة وهرب بعضهم إلى الجبال ، فاقتتل المسلمون مع أهل تلك المدينة فانهزم أهل تلك البلاد وقتل كثير من فرسانهم .

ورحل عقبة إلى « تاهرت » فاستغاث الروم بالبربر فأجابوهم ونصروهم .

وقام عقبة في الناس خطيباً فقال بعدما حمد الله وأثنى عليه :
أيها الناس إن أشرافكم وخياركم الذين رضي الله تعالى عنهم وأنزل
فيهم كتابه بايعوا رسول الله ﷺ بيعة الرضوان على من كفر بالله إلى
يوم القيامة ، وهم أشرافكم والسابقون منكم إلى البيعة ، باعوا
أنفسهم من رب العالمين بجمته بيعة رابحة ، وأنتم اليوم في دار غربة ،
وإنما بايعتم رب العالمين ، وقد نظر إليكم في مكانكم هذا ، ولم
تبلغوا هذه البلاد إلا طلباً لرضاه وإعزازاً لدينه ، فأبشروا فكلما كثر
العدو كان أخزى لهم وأذل إن شاء الله تعالى ، وربكم عز وجل
لأيسلمكم ، فآلقوهم بقلوب صادقة ، فإن الله عز وجل جعلكم بأسه
الذي لا يُردّ عن القوم المجرمين فقاتلوا عدوكم على بركة الله وعونه ،
والله لا يرد بأسه عن القوم المجرمين .

وهذه خطبة عظيمة تدل على أن عقبة بن نافع رضي الله عنه قد
اعتمد في حروبه على السلاح الأعظم الذي فيه سر انتصارات
المسلمين الباهرة . . ألا وهو التوكل على الله تعالى ، واستحضار
عظمته وجلاله ، ومعيته لأوليائه المؤمنين بالنصر والتأييد ، فهو
لا يبالى بجيوش الأعداء مهما كثرت ، وإنما الذي يهتم به أن يتأكد
جيداً من أن هذا السلاح المعنوي الفعال قد توفر في جيشه ، وحينما
يضمن ذلك فإنه يرحب باجتماع جيوش الأعداء ليكون ذلك أسرع في
هلاكهم وتمزيق جمعهم على يد أولياء الله الصالحين .

وما أعظم شبه عقبة بخالد بن الوليد رضي الله عنه ، الذي كان
يُسَرُّ ويدخله شعور بالقوة والتعاضم - من غير غرور ولا استهانة - كلما

تضخم جيش الأعداء وتعددت عناصره ، وكأن عقبة قد تأسى به واتخذ له قدوة في القيادة والإقدام الذي لا يعرف التردد والسامة .

وهو في إقدامه واندفاعه يدرك أن جنود الإسلام الصادقين هم بأس الله تعالى المسلط على أعدائه الكفار ، والله تعالى لا يُردُّ بأسه عن القوم المجرمين .

إن شعوره الدائم بأن المجاهدين المسلمين هم سيف الله تعالى وبأسه الموجه ضد أعدائه يجعله عظيم الثقة بنصر الله تعالى وحسن الظن به .

ولقد مرت علينا في معركة الأحزاب ومؤتة واليرموك وغيرها أمثلة رائعة لارتفاع نسبة اليقين لدى الصحابة رضي الله عنهم ، إلى الحد الذي أصبحوا يشعرون فيه بقوة ارتباطهم بالله تعالى وعمق توكلهم عليه ورجائهم لنصره وتأيينه ، حيث تضخم في حسهم وشعورهم هذا السلاح المعنوي الفعال ، وأصبح السلاح المادي أمراً ثانوياً مكملًا .

ولفرط إحساسهم بفعالية هذا السلاح المعنوي ، وقوة إدراكهم لضرورته فإنهم كانوا شديدي الحساسية من مخالفة أوامر الله تعالى ، يحاسبون أنفسهم حساباً شديداً ، وينكرون على الغافلين الذين لا يتنبهون لأهمية ذلك ، و يأخذهم قادتهم غالباً بالحزم والمتابعة المتواصلة في هذا المجال .

والتقى المسلمون بأعدائهم في مدينة « تاهرت » وقاتلوهم قتالاً شديداً ، فاشتد الأمر على المسلمين لكثرة عدوهم ، ولكنهم انتصروا

أخيراً ، وانهزم أعداؤهم من الروم والبربر ، وقُتل منهم عدد كبير ، وغنم منهم المسلمون أموالهم وسلاحهم .

وهكذا نصر الله تعالى المسلمين في هذه المعركة وماسبقها من معارك مع عدم التكافؤ في العدد والقوى مع أعدائهم لتفوق المسلمين في السلاح المعنوي إلى حد لا يمكن أن تُجرى فيه نسبة مع الأعداء لخواء الأعداء من ذلك السلاح .

ومازال عقبة يسير من نصر إلى نصر رغم قوة أعدائه وكثرتهم وكونه في بلادهم مع بعده عن قاعدته « القيروان » حتى وصل إلى المحيط الأطلسي فقال : « يارب لولا هذا البحر لمضيت في البلاد مجاهدا في سبيلك » ثم قال : اللهم اشهد أني قد بلغت الجهود ، ولولا هذا البحر لمضيت في البلاد أقاتل من كفر بالله حتى لا يُعبد أحد من دونك » .

ثم وقف ساعة ، ثم قال لأصحابه : ارفعوا أيديكم ، ففعلوا ، فقال : اللهم إني لم أخرج بطراً ولا أشراً وإنك لتعلم أنما نطلب السبب الذي طلبه عبدك ذو القرنين وهو أن تُعبد ولا يُشرك بك شيء ، اللهم إنا معاندون لدين الكفر ، ومدافعون عن دين الإسلام ، فكن لنا ولا تكن علينا يا ذا الجلال والإكرام ، ثم انصرف راجعا (١) .

وهكذا نجد عقبة بن نافع القائد المجاهد ، وقد عشنا معه في مغامراته وتنقلاته السريعة التي قطع بها أكثر من ألف ميل وخاض

(١) الكامل لابن الأثير ٣/٣٠٨ - ٣٠٩ ، البيان المغرب لابن عذاري ١/٢٣ - ٢٧ ،

قادة فتح المغرب العربي للواء الركن محمود شيت خطاب ١/١٠٨ - ١٢٠ .

عدداً من المعارك الضارية كان النصر فيها حليفه ، حيث استمر يفتح البلاد ويُرهب الكفار ويظهر عزة الإسلام ، ويحرر عقول الناس حتى يفهموا دعوة الإسلام .

وندرك من قوله المذكور مدى هُيامه بالجهاد وشعوره بالمسئولية الكبرى التي حملها على عاتقه نحو تبليغ الإسلام وتقوية دولته والقضاء على دُول الكفر التي حجبت نور الإسلام عن شعوبها .

فهو يقف على البحر المحيط ويعلم آنذاك أنه نهاية المعمور من الأرض من ناحية المغرب ، ثم نجده يُشهد الله تعالى على أنه قد بلغ المجهود الذي تحت مقدرته ، وهذه الشهادة تُشعرنا بمدى ارتباط عقبة بالله تعالى ، وأنه لم يكن يسير خطوة إلا وهو يستلهم التوفيق منه جل وعلا ويطلب رضوانه .

وهذا الكلام يدل على وضوح الهدف من الجهاد عند عقبة حيث بين أن الحد الذي يقف عنده الجهاد ، أن يزول الشرك من الأرض ، وأن لا يُعبد إلا الله جل وعلا وحده ، ومادام الشرك قائماً فإن الجهاد لابد أن يكون موجوداً ، فالجهاد إذاً هو جهاد الدعوة إلى الله تعالى ، وذلك بإزالة الطغيان البشري وإخضاع دول العالم لحكم الإسلام كي يكون فهم الإسلام واعتناقه متيسراً لكل الناس .

نهاية عقبة بن نافع :

قفل عقبة بن نافع من رحلته الطويلة في الغزو راجعاً إلى القيروان من المغرب الأقصى ، ولما صار قريباً من منطقة القيروان أرسل غالب جيشه على أفواج إلى القيروان ، وبقي هو على رأس الفوج

الأخير، ومعه ما يقرب من ثلاثمائة من الفرسان من الصحابة والتابعين .
وكان من عادة عقبة أنه يكون في مقدمة الجيش عند الغزو ويكون
في الساقة عند قفول الجيش ، فهو بذلك يعرض نفسه لخطر مواجهة
العدو دائماً ، وإن هذه التضحية الكبيرة جعلته محبوباً لدى أفراد
جيشه بحيث لا يعصون له أمراً ويتسابقون على التضحية اقتداءً به ،
وهذه الصفة تعتبر من أهم عوامل نجاح القائد والإداري في أي عمل
يتوجه إليه .

ولما علم الروم بانفراد عقبة بهذا العدد القليل من جيشه انتهزوا
هذه الفرصة لمحاولة القضاء عليه ، وهم يدركون أن وجوده القوي
يعتبر أهم العوامل في تماسك المسلمين وبقاء قوتهم ، فتآمروا عليه مع
كسيلة البربري فجمعوا لعقبة وأصحابه جمعاً لا قبلَ لهم به .
وفي هذا الوقت الذي أدرك فيه عقبة حصول الشهادة له ولجند
تظهر البطولات الكبيرة ، والتطبيق الحي لتوجيهات الإسلام العالية
نحو التضحية وفداء الإسلام بالنفوس .

فقد كان بإمكان عقبة أن يتسلل مع رفقة قليلة من جيشه ليلحق
بجيشه الكبير في القيروان، ولكنه آثر بهذه الفرصة أبا المهاجر الذي
كان والياً على أفريقية في الوقت الذي عُزل فيه عقبة عن الولاية،
وكان عقبة قد اصططحبه معه في تلك الغزوات فلما شاهد عقبة الموقف
الذي يغلب على الظن فيه استئصال المسلمين بالكامل قال لأبي
المهاجر: « الْحَقُّ بِالْمُسْلِمِينَ وَقَمِّ بِأَمْرِهِمْ وَأَنَا اغْتَنِمُ الشَّهَادَةَ » .

وعقبة بهذا الكلام قد لاحظ أمرين مهمين عنده : أولهما أن يولي

على المسلمين في القيروان من يقوم بشئونهم ، وقد رأى أن أولى الناس بذلك أبا المهاجر ، والأمر الثاني اغتنام فرصة الشهادة التي طالما انتظرها ببالح الشوق ، وقد لاحت له بوادرها في ذلك اليوم .

ولكن أبا المهاجر يرد عليه بقوله : « وأنا أيضاً أريد الشهادة » .

وهكذا كان أبو المهاجر نموذجاً آخر من تلك النماذج الفريدة من الرجال ، الذين هانت عليهم الحياة الدنيا ، واستولى على قلوبهم حب الآخرة وكسب رضوان الله تعالى .

ومن هذا المنطلق أقدم عقبة ومعه عدد قليل على معركة غير متكافئة ، وكان بإمكان بعضهم الفرار ، ولكنهم ثبتوا ثبات الأبطال حتى إستشهدوا جميعاً في بلاد « تهوذة » من أرض الزاب .

ويذكر المؤرخون أن قبور هؤلاء الشهداء معروفة في ذلك المكان وأن المسلمين يزورونها (١) .

إنه موقف عظيم من مواقف الثبات ، ومفخرة كبرى يعتز بها المسلمون ، حيث لا يوجد في تاريخ أعدائهم أن جيشاً بأكمله يثبت في القتال حتى يُقتل جميع أفرادهم ، إذ أن المشكلة الكبرى التي يواجهها قادة الأعداء ويضعون لها الحلول المتعددة هي لجوء أكثرهم إلى الفرار حينما تميل الكفة لصالح المسلمين كما مر علينا في مواقف كثيرة .

ولاشك أن هذا الموقف العالي من الثبات قد برهن للأعداء عن صدق المسلمين في دينهم ، وعلو مستواهم في الثبات والصبر ، وذلك

(١) الكامل لابن الأثير ٣/٣٠٩ ، البيان المغرب ١/٢٨ ، قادة فتح المغرب العربي ١١١/٢ .

يَجْعَلُهُمْ يَتَرَدَّدُونَ فِي مُوَاجَهَتِهِمْ فِيمَا لَوْ كَانَ عَدَدُهُمْ أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ .
وإن مما هو مقرر في نظام الحروب أن المقاتل المستقل الذي يريد الموت لا يُقتل حتى يَقْتُلَ عدداً من الأعداء على قدر شجاعته وقوته ،
لأن طاقته الكاملة موجهة للإثخان في العدو ، بحيث يلغي من حسابه
الدفاع عن النفس ، وهذا يدلنا على أن هؤلاء الثلاثمائة تقريباً قد قتلوا
أضعافهم من الأعداء في تلك المعركة ، ولكن الأعداء كانوا مصرين
على القضاء عليهم لما يتوقعونه من المكاسب الكبيرة لهم في ذلك .

ولقد كان استشهاد عقبة بن نافع ومن معه في عام ثلاثة وستين
للهجرة وعمره آنذاك في حدود أربع وستين سنة ، وبهذا ندرك مبلغ
القوة التي كان يتمتع بها أسلافنا حيث قام بتلك الرحلة الشاقة وخاض
تلك المعارك الهائلة وقد جاوز الستين من عمره .

وهكذا استشهد هذا القائد العظيم بعد جهاد دام أكثر من أربعين
عاماً قضاهما في فتوح شمال أفريقيا ، ابتداء بمصر وانتهاء بالمغرب
الأقصى .

وكان قائداً بارعاً وإدارياً ناجحاً ، استطاع بأخلاقه وحكمته
وحزمه أن يكسب قلوب أتباعه وأن يُوجههم توجيهاً سليماً نحو الجهاد
وإعزاز الإسلام .



٥ - فتوحات زهير البلوي -

لما تم لكسيلة البربري القضاء على عقبة بن نافع ومن معه رحف بجيشه على القيروان ، وفي ذلك يقول ابن عذارى : وفي سنة أربع وستين دخل كُسَيْلَةُ البُرْنُسي مدينة القيروان ، وانتزعها من أيدي المسلمين في محرم ، وذلك أنه اجتمع معه جميع أهل المغرب ، وزحف إلى القيروان ، فعظم البلاء على المسلمين . فقام زُهَيْر بن قيس خطيباً في الناس ، فقال : « يامعشر المسلمين إن أصحابكم قد دخلوا الجنة ، وقد منَّ الله عليهم بالشهادة فاسلكوا سبيلهم ويفتح الله لكم دون ذلك ، فقال حنشُ الصنعاني : لا والله مانقبل قولك ، ولالك علينا ولايةٌ ولاعملٌ أفضل من النجاة بهذه العصابة من المسلمين إلى مشرقهم ، ثم قال : « يامعشر المسلمين من أراد منكم القفول إلى مشرقه فليتبعني ، فاتبعه الناس ، ولم يبق مع زهير إلا أهل بيته ، فنهض في أثره ولحق بقصره ببرقة ، فأقام بها مُرابطاً إلى دولة عبد الملك ابن مروان .

وأقبل كسيلة البُرْنُسي بعساكره . فلما قرب من القيروان ، خرج من كان فيها هارين ، إذ لم يكن لهم طاقةٌ بقتاله لعظيم مااجتمع عنده من البربر والروم . فأمن كسيلة من بقي بالقيروان من المسلمين ، وأقام بالقيروان أميراً على سائر أفريقية والمغرب ، وعلى من فيه من المسلمين ، إلى أن وُلِّي الخلافة عبد الملك بن مروان .

قال : وفي سنة خمس وستين من الهجرة وُلِّي عبد الملك بن مروان . فلما اشتدَّ سلطانه واجتمع أكابر المسلمين عليه سأله تخلص

أفريقية ومن بها من المسلمين من يد كسيلة اللعين فقال : لا يصلح للطلب بدم عقبة من الروم والبربر إلا من هو مثله ديناً وعقلاً ، فاستشار مع وزرائه فاجتمع رأيهم على تقديم زهير بن قيس البلوي ، وقالوا : هذا صاحبُ عقبة ، وأعلمُ الناس بسيرته وتدبيره وأولاهم بطلب دمه ، فوجه عبد الملك إلى زهير وهو ببرقة يأمره بالخروج على أعنة الخيل إلى أفريقية ، ليستنقذ من بالقيروان . فكتب إليه زهير يعرفه بكثرة من اجتمع على كسيلة من البربر والروم ، فأمدّه عبد الملك ابن مروان بالخيول والرجال والأموال ، وحشد إليه وجوه العرب وبعثهم إليه . فوفدت الجيوش على زهير ، وتسرع الناس معه إلى أفريقية .

قال : وفي سنة تسع وستين أقبل زهير بن قيس البلوي في عسكر عظيم إلى أفريقية . فبلغ كسيلة بن لمزم قدومه إليه وعزمه عليه . فجعل لايهابه ولا يخاف منه . وكان كسيلة في خلق عظيم من البربر والروم ، أضعاف مامع زهير مضاعفة . فدعا كسيلة أشراف البربر وقال لهم : إني رأيت أن أرحل عن هذه المدينة فإن بها قومًا من المسلمين لهم علينا عهدٌ . ونحن نخاف إن أخذنا القتال معهم أن يكونوا علينا . ولكن ننزل على موضع ممس^(١) وهي على الماء . فإن عسكرنا خلقٌ عظيم ، فإن هزمناهم إلى طرابلس قطعنا آثارهم ، فيكون لنا الغرب إلى آخر الدهر وإن هزمونا كان الجبل منّا قريباً والشعراء^(٢) فنتحصن بهما .

قال : ولما رحل كسيلة عن القيروان ، نزل عليها زهير بن قيس

(١) هي مدينة في الجزائر في الجنوب الشرقي لجبال أوراس .

(٢) يعني الشجر الملتف .

ثلاثة أيام ولم يدخلها ، وفي اليوم الرابع رحل عنها حتى أشرف على
عسكر كسيلة في آخر النهار ، فأمر الناس بالنزول . فلما أصبح
وصلى زحف إليه ، وأقبل كسيلة ومن معه فالتقى الجمعان ، والتحم
القتال بين الفريقين ، ونزل الضرُّ وكثر القتل في الفريقين ، حتى يئس
الناس من الحياة . فلم يزالوا كذلك حتى انهزم كسيلة وقتل . ومضى
الناس في طلب البربر والروم ، فلحقوا كثيراً منهم وقتلوهم وجدوا
في طلبهم إلى وادي ملوية بالغرب ، ففي تلك الوقعة ذهب رجال
الروم والبربر المشركين ، وقُتل ملوكهم وأشرفهم وفرسانهم . ثم
انصرف زهير إلى القيروان فأوطنها . ففزع منه أهل أفريقية ، واشتد
خوفهم ، فلجؤوا إلى الحصون والقلاع (١) .

في هذا الخبر مواقف منها :

أولاً : موقف جهادي مشرف من زهير بن قيس البلوي ، حيث
دعا جيش المسلمين إلى جهاد كسيلة البربري ، والحقيقة إن الجيش
الإسلامي الذي فتح به عقبة بن نافع المغرب موجود في القيروان ولم
يفقد منه إلا عقبة والذين استشهدوا معه ، فكان الوضع المقبول أن
ينهض المسلمون هناك لجهاد عدوهم ، ولكن أكثرهم أطاع حنش
الصنعاني الذي دعاهم إلى العودة إلى المشرق .

ومن تحليل ذلك الواقع يتبين لنا أن عودة ذلك الجيش كانت بسبب
القلق والاضطرابات التي سادت دار الإسلام آنذاك ، حيث ثار أهل

(١) البيان المغرب لابن عذاري ١/ ٣٠ - ٣٣ ، الكامل لابن الأثير ٣/ ٣٠٩ ، وانظر قادة
فتح المغرب العربي ١/ ١٥١ - ١٥٧ .

المدينة على يزيد بن معاوية ، وبائع أهل مكة عبد الله بن الزبير وخرج الحسين إلى العراق فكانت حادثة مقتله ، ثم استطاع ابن الزبير بعد موت يزيد أن يستولي على الحجاز والعراق ، ولعل حنش الصنعاني رأى أن المشاركة في إصلاح دولة الإسلام من داخلها أولى من الجهاد في أطراف دولة الإسلام ، ومن أدلة ذلك أنه انضم إلى ابن الزبير لما رأى أنه أحق بالخلافة ، ولا يُظَنُّ به ولا بأولئك المجاهدين أنهم تركوا ساحة الجهاد تفضيلاً للراحة وهروباً من لقاء العدو وهم الذين كانوا يتحرقون شوقاً إلى الجهاد .

نهاية زهير البلوي وأصحابه :

عاد زهير إلى القيروان بعدما وطد أقدام المسلمين في تلك المنطقة ، وحينما أَمِنَ على وضع المسلمين في القيروان سار ببعض الجيش إلى برقة ، وكان يخشى عليها من هجوم الروم حيث لم يترك بها إلا حامية صغيرة .

وقد حصل ماكان يخشى منه زهير حيث أغار الروم على برقة ونهبوا أموالها وسبوا بعض رجالها ، ووصل زهير إلى برقة والروم ينقلون الأسرى من المسلمين إلى مراكزهم ، فاستغاث به المسلمون فأسرع إلى نجدهم على غير استعداد منه للقاء العدو ، وكان جيشه متعباً من السفر فلم يستطيعوا مقاومة الروم ، ومع وقوعهم في هذا الظرف السيء فإنهم ثبتوا للروم رغم قتلهم وكثرة أعدائهم حتى استشهد زهير وأصحابه (١) .

(١) الكامل لابن الأثير ٣/ ٣٠٩ - ٣١٠ ، البيان المغرب لابن عذاري ١/ ٣٣ .

وهكذا وقع زهير البلوي في الوضع نفسه الذي وقع فيه عقبة بن نافع الفهري حيث باغتهما العدو على غير استعداد منهما فكانت النتيجة الظفر بالشهادة ، وإن كان ذلك قد أثر على وضع المسلمين في أفريقيا .

وبهذا انتهى جهاد زهير بن قيس البلوي ، التقي العابد والقائد الشجاع ، بعدما أزال طغيان البربر والروم في شمال أفريقيا فرحمه الله تعالى رحمة واسعة .

ولعل الذي شجع الروم على الهجوم على برقة - إضافة إلى انشغال زهير بالجهاد في المغرب - ما حدث في دار الإسلام من فتن داخلية ، حيث كانت الحرب قائمة - آنذاك - بين عبد الله بن الزبير ، رضي الله عنهما وعبد الملك بن مروان .

* * *

٦ - فتوحات حسان بن النعمان

ذكر ابن عذاري أن عبد الملك بن مروان ولاء على أفريقية، وقدمه على عسكر فيه أربعون ألفاً ، وقال له : إني قد أطلقت يدك في أموال مصر فأعط من معك ومن ورد عليك ، وأعط الناس ، واخرج إلى بلاد أفريقية على بركة الله وعونه .

فتح قرطاجنة : (١)

قال ابن عذاري : قدم أفريقية في عسكر عظيم ، فلم يدخل المسلمون قط أفريقية بمثل مادخلها حسان بن النعمان ، فلما حصل بالقيروان ، سأل أهل أفريقية : من أعظم الملوك بها قدرا ؟ فقالوا : صاحب قرطاجنة دار ملك أفريقية فسار حسان حتى نزل عليها . وكان بها من الروم خلق لا يحصى كثرة . فخرجوا إليه مع ملكهم ، فقاتلهم حسان حتى هزمهم ، وقتل أكثرهم . ثم نازلها حتى افتتحها ، وهي كانت دار الملك بأفريقية .

فلما قدم حسان إليها ، وقتل فرسانها ورجالها ، اجتمع رأي من بقي بها على الفرار منها . وكانت لهم مراكب كثيرة ، فممنهم من مضى إلى صقلية ، ومنهم من مضى إلى الأندلس . فلما انصرف عنها حسان وعلم أهل بواديهما وأقاليمها هروب الملك عنها بادروا إليها فدخلوها . فرحل إليها حسان ونزل عليها فحاصرها حصاراً شديداً حتى دخلها بالسيف . فقتلهم قتلاً ذريعاً ، وسباهم ونهبهم . وأرسل لمن حواليتها فاجتمعوا إليه مسارعين خوفاً من عظيم سطوته ، وشدة

(١) ذكر ابن عذاري أنها مدينة عظيمة وأنها عن مدينة تونس على اثني عشر ميلاً .

بأسه . فلما أتوه ولم يبق منهم أحدٌ أمرهم بتخريب قرطاجنة وهدمها . فخربوها حتى صارت كأمس الغابر . ثم بلغه أن النصارى اجتمعوا وأمدهم البربر بعسكر عظيم في بلاد صطفورة ، فرحل إليهم حسان حتى لقيهم . وقاتلهم حتى هزمهم ، وقتل الروم والبربر قتلاً ذريعاً ، وحمل عليهم أعنة خيله ، فما ترك من بلادهم موضعاً إلا وطئه . ولجأ الروم هارين خائفين إلى مدينة باجة فتحصنوا بها ، وهرب البربر إلى إقليم بونة . وانصرف حسان إلى القيروان .

معركة المسلمين الأولى مع الكاهنة :

قال ابن عذاري : لما دخل حسان القيروان ، أراح بها أياماً . ثم سأل أهلها عمن بقي من أعظم ملوك أفريقية ليسير إليه فيسيده أو يُسلم ، فدلوه على امرأة بجمال أوراس يقال لها الكاهنة ، وجميع من بأفريقية من الروم منها خائفون ، وجميع البربر لها مطيعون : فإن قتلها دان لك المغرب كله ولم يبق لك مضادٌ ولا معاندٌ ، فدخل بجيوشه إليها . وبلغ الكاهنة خبره فرحلت من الجبل في عدد لا يُحصى ، ولا يبلغ بالاستقصاء وسبقته إلى مدينة باغاية . فأخرجت منها الروم ، وهدمتها ، وظنت أن حسانا يريد مدينة ليتحصن بها منها . فبلغ خبرها حساناً فنزل بوادي مسكيانة . فرحلت الكاهنة حتى نزلت على الوادي المذكور . فكان هو يشرب من أعلى الوادي ، وهي من أسفله . فلما توافت الخيل دنا بعضهم من بعض ، فأبى حسان أن يقاتلها آخر النهار . فبات الفريقان ليلتهم على سروجهم . فلما أصبح الصباح التقى الجمعان ، فتقاتلوا قتالاً لم يسمع بمثله ، وصبر

الفريقان صبراً لم ينته أحدٌ إليه ، إلى أن انهزم حسان بن النعمان ومن معه من المسلمين . وقتلت الكاهنة العرب قتلاً ذريعاً ، وأسرت ثمانين رجلاً من أعيان أصحابه . وسُمِّيَ ذلك الوادي وادي العذارى . واتبعت الكاهنة حتى خرج من عمل قابس . فكتب حسان إلى أمير المؤمنين عبد الملك يُخبره بذلك ، وأن أُمَمَ المغرب ليس لها غاية ولا يقف أحدٌ منها على نهاية ، كلما بادت أمةٌ خلفتها أُمَمٌ ، وهي من الجهل والكثرة كسائمة النعم . فعاد له جوابُ أمير المؤمنين يأمره أن يقيم حيثما وافاه الجواب ، فورد عليه في عمل برقة . فأقام بها وبني هنالك قصوراً تُسمى إلى الآن بقصور حسان .

وملكت الكاهنة المغرب كله بعد حسان خمس سنين . فلما رأت إبطاء العرب عنها ، قالت للبربر : إن العرب إنما يطلبون من أفريقية المدائن والذهب والفضة ، ونحن إنما نريد منها المزارع والمراعي ، فلانرى لكم إلا خراب بلاد أفريقية كلها ، حتى يئس منها العرب ، فلا يكون لهم رجوعٌ إليها إلى آخر الدهر ، فوجهت قومها إلى كل ناحية ، يقطعون الشجر ، ويهدمون الحصون ، فذكروا أن أفريقية كانت ظلاً واحداً من إطرابلس إلى طنجة ، وقرى متصلة ، ومدائن منتظمة ، حتى لم يكن في أقاليم الدنيا أكثر خيرات ، ولا أوصل بركات ، ولا أكثر مدائن وحصوناً من إقليم أفريقية والمغرب ، مسيرة ألفي ميل في مثله . فخربت الكاهنة ذلك كله ، وخرج يومئذ من النصرى والأفارقة خلقٌ كثيرٌ ، مُستغيثين مما نزل بهم من الكاهنة ، ففرقوا على الأندلس وسائر الجزر البحرية .

وكانت الكاهنة ، لما أسرت ثمانين رجلاً من أصحاب حسان ، أحسنت إليهم ، وأرسلت بهم إلى حسان ، وحبست عندها خالد بن يزيد . فقالت له يوماً : مارأيت في الرجال أجمل منك ولا أشجع ! وأنا أريد أن أضعك ، فتكون أخاً لولدي ! وكان لها ابنان أحدهما بربري والآخر يوناني . وقالت له : نحن جماعة البربر لنا رضاع : إذا فعلناه نتوارث به ، فعمدت إلى دقيق الشعير ، فَلَثَّتْهُ بزيت ، وجعلته على ثدييها . ودعت ولديها ، وقالت : كُلَا معه على ثديي ، ففعلا ، فقالت : قد صرتم إخوة^(١) .

وقد علل اللواء الركن محمود شيت خطاب انهزام المسلمين رغم كثرتهم بأسباب من أقربها أن المسلمين اغتروا بكثرتهم واحتقروا عدوهم خاصة وأنهم بقيادة امرأة منهم وهي الكاهنة ، فلم يبذل المسلمون مايلزم لتلك المعركة من جهد وطاقة بينما استمات أعداؤهم حيث جعلوا تلك المعركة معركة حياة أو موت^(١) .

وأهم من ذلك إن كان هذا هو الدافع للهزيمة ما يترتب عليه من تخلف معية الله تعالى لعباده بالنصر والتأييد إذا اغتروا بكثرتهم وغفلوا عن ذكر الله جل وعلا واستمداد النصر منه ، فيصبح المسلمون هم وأعداؤهم في ميزان معنوي واحد لتخلف نصر الله تعالى عن الجميع ، وتبقى بعد ذلك الموازين المادية ، وقد تفوق فيها الأعداء في تلك المعركة .

(١) البيان المغرب ٣٤ / ١ - ٣٧ ، وانظر الكامل في التاريخ لابن الأثير ٣١ / ٤ - ٣٢ .

(٢) قادة فتح المغرب ١ / ١٨٥ .

معركة المسلمين الثانية مع الكاهنة :

قال ابن عذاري : ثم إن حسانا توافت عليه فرسان العرب ورجالها من قبل أمير المؤمنين عبد الملك . فدعا حسان عند ذلك برجل يثق به ، وبعثه إلى خالد بن يزيد بكتاب . فقرأه وكتب في ظهره : إن البربر متفرقون . لانظام لهم ولا رأى عندهم فاطو المراحل ، وجد في السير وجعل الكتاب في خبزة وجعلها زاداً للرجل ، ووجهه بها إلى الأمير حسان . فلم يغب عن خالد بن يزيد إلا يسيراً حتى خرجت الكاهنة ناشرة شعرها ، تضرب صدرها ، وتقول : ياويلكم ! يامعشر البربر ! ذهب ملككم فيما يأكله الناس فافترقوا يمينا وشمالاً يطلبون الرجل ، فستره الله تعالى حتى وصل حسانا ، فكسر الخبزة وقرأ الكتاب الذي كتبه إليه خالد ، فوجده قد أفسدته النار . فقال له حسان : ارجع إليه ، فقال الرجل : إن المرأة كاهنة : لا يخفى عليها شيء من هذا ^(١) . فرحل حسان بجنوده إليها . وبلغ الكاهنة خبره ، فرحلت من جبل أوراس في خلق عظيم . ورحل إليها حسان . فلما كان في الليل ، قالت لابنيها : إني مقتولة ، وأعلمتهم أنها رأت رأسها مقطوعاً موضوعاً بين يدي ملك العرب الأعظم الذي بعث حسانا . فقال لها خالد : فارحلي بنا وخلي له عن البلاد ، فامتنعت ، ورأته عاراً لقومها . فقال لها خالد وأولادها : فما نحن صانعون بعدك ؟ فقالت : أما أنت ياخالد فستدرك ملكاً عظيماً عند الملك الأعظم وأما أولادي فيسدركون سلطناً مع هذا الرجل الذي

(١) وجاء في رواية ابن الأثير : فعاد إلى خالد فكتب إليه كما كتب أولاً وأودعه قريوس السرج .

يقتلني ويعقدون للبربر عزاً ، ثم قالت : اركبوا واستأمنوا إليه ، فركب خالد وأولادها في الليل ، وتوجهوا إلى حسان . فأخبره خالدٌ بخبرها ، وأنها علمت قتلها ، وقد وجهت إليك بأولادها . فوكلَ بهما من يحفظهما ، وقدم خالدًا على أعنة الخيل . وخرجت الكاهنة ناشرة شعرها فقالت : انظروا مادمكم فإني مقتولةٌ . ثم التحم القتال ، واشتد الحرب والنزال . فانهزمت الكاهنة ، واتبعها حسان حتى قتلها .

وكان مع حسان جماعةٌ من البربر استأمنوا إليه . فلم يقبل أمانهم إلا أن يعطوه من قبائلهم اثني عشر ألفاً يجاهدون مع العرب . فأجابوه وأسلموا على يديه . فعقد لولدي الكاهنة ، لكل واحد منهما على ستة آلاف فارس ، وأخرجهم مع العرب يجولون في المغرب يقاتلون الروم ومن كفر من البربر . وانصرف حسان إلى مدينة القيروان ، بعدما حسن إسلامُ البربر وطاعتهم ، وذلك في شهر رمضان سنة اثنتين وثمانين . وفي هذه السنة استقامت بلاد أفريقيا لحسان بن النعمان ، فدوّن الدواوين ، وصالح على الخراج ، وكتبه على عجم أفريقيا وعلى من أقام معهم على دين النصرانية ^(١) .

في هذا الخبر مواقف وعبر ، فمن ذلك : أولاً ما قام به خالد بن يزيد القيسي من الكتابة إلى حسان بن النعمان وجعله ذلك الكتاب في خبزة ثم في قربوس السرج .

وهذا التصرف من خالد بن يزيد يدلنا على شدة حزمه واحتياطة للأمر حتى لا يقع كتابه بيد أحد جواسيس الكاهنة فتفسد خطة

(١) البيان المغرب ٣٤/١ - ٣٨ ، وانظر الكامل في التاريخ لابن الأثير ٣١/٤ - ٣٣ .

المسلمين ويتعرض هو وبقيّة أسرى المسلمين للأذى والقتل من تلك الحاكمة الجبارة .

وقد أفاد في هذا الكتاب أن أهم عنصر من عناصر القوة لدى الكاهنة قد زال عنها وهو اجتماع قبائل البربر عليها حيث إنهم متفرون وأن نظامهم قد اختل وأصبحت الفرصة مناسبة للقضاء على قوة أولئك البربر .

ثانيًا : في سياسة تلك المرأة الكاهنة الهوجاء عبرة ، فإنها فقدت سمعتها شيئًا فشيئًا حيث أساءت معاملة أهل تلك البلاد وظلمت وتجيّرت ، ثم خطر ببالها أن العرب إنما يريدون البلاد لما فيها من عمران وأموال فأمرت أتباعها بهدم العمران وقطع الأشجار حتى أحالت المدن العامرة إلى خراب ، فكان ذلك وبالأعلى عليها حيث انقلب عليها أهل البلاد وأصبحوا يتمنون عودة المسلمين ليخلصوهم من ظلمها .

وهكذا هيا الله للمسلمين الظروف الملائمة والمهدة للقضاء على ذلك العدو المتمكن ، وهذا يدلنا على أن المسلمين لم ينتصروا لمجرد قوتهم وشجاعتهم وإنما كان العامل الأول في انتصاراتهم المتوالية هو مااشتهروا به من العدل والأمانة والرحمة وسائر مكارم الأخلاق التي جعلت الشعوب المغلوبة على أمرها تتمنى قدوم المسلمين عليهم ليخلصوهم من بطش الظالمين وقهرهم .

ثالثًا : مما حدث بعد هذه المعركة من الحوادث المشتملة على مواقف حميدة أن جماعة من زعماء البربر جاؤوا إلى حسان بن

النعمان مستأمنين فقبل أمانهم بشرط أن يعطوه اثني عشر ألفاً من
قبائلهم يجاهدون مع المسلمين ، فأجابوه وأسلموا على يديه ،
وأحضروا له ذلك العدد ، فولّى ولَدَي الكاهنة على ذلك الجيش .

* * *

٧ - فتوحات موسى بن نصير -

لقد آل أمر المغرب بعد حسان بن النعمان الأزدي إلى آخر قادتها الفاتحين وهو موسى بن نصير اللخمي ، وذلك في أوائل سنة ست وثمانين تقريباً ، وكانت ولايته من قَبْلَ أمير مصر عبد العزيز بن مروان .

ولما أكمل موسى بن نصير استعداد جيشه توجه من مصر إلى أفريقية وقام خطيباً في جيشه وكان مما قاله : « إنما أنا رجل كأحدكم فمن رأى مني حسنة فليحمد الله تعالى ، وليحضرَّ على مثلها ، ومن رأى مني سيئة فلينكرها ، فإني أخطئ كما تخطئون ، وأصيب كما تصيبون ، وقد أمر الأمير أكرمه الله تعالى لكم بعطاياكم وتضعيفها ثلاثاً ، فخذوها هنيئاً مريئاً ، ومن كانت له حاجة فليرفعها إلينا وله عندنا قضاءؤها على ماعزٍّ وهان ، مع المواساة إن شاء الله تعالى ولا حول ولا قوة إلا بالله » (١) .

وهذه خطبة عظيمة قدّمها موسى بن نصير بين يدي ولايته أمام جنده ، وقد قرر فيها قواعد العدل التي بها تستقر أمور الولايات ، ويعرف بها الجنود والرعية أن الأمير سيسير بالعدل بين الناس ، والإنصاف حتى من نفسه .

وإذا استقرت أمور الناس على العدل فإنهم يستخرجون كل مألدهم من مقدرة في العمل ، فيصبح الواحد منهم عن عشرة أو أكثر ممن لا يبرزون إلا بعض طاقتهم .

(١) قادة فتح المغرب ٢٢٨/١ عن الإمامة والسياسة ٦١/٢ - ٦٢ .

إن إظهار العدل والالتزام بتطبيقه هو أول علامات نجاح المسئول لأنه بالتمثل بهذا المبدأ يضمن جنوداً مخلصين له ولقضيته، كما أنه يضمن خلو عمله من المشكلات والمآزق التي تنتج غالباً من تفضيل الأدنى على الأعلى ، وإبراز أصحاب القدرات الضعيفة والكفاءات القليلة مع تجاهل أصحاب الكفاءات العالية الذين يبذلون طاقات كبيرة في العمل .

ولقد كان موسى بن نصير موفقاً حينما وجه جنده إلى تقويم أعماله التي يقوم بها ، ثم القيام بحمد الله تعالى على الحسنات ، والنصيحة للقائد بالإكثار منها والمداومة عليها، وإنكار السيئات وبيان الأخطاء . . وذلك أن الإشادة بالحسنات والتذكير بها مما يدفع المسئول إلى مضاعفتها والالتزام بها ، وبيان الأخطاء في حينها مما يدفع المسئول إلى تصحيحها والحذر من تكرارها .

إن الأخطاء إذا تركت فلم تعالج في أول حدوثها فإنها تترك آثاراً سيئة ، وقد يترتب عليها أخطاء أخرى ، وقد تتكرر إذا لم ينتبه لها المسئول أو يُنبه لها ناصح مخلص .

جهود ابن نصير في إخضاع المتمردين :

ما أن وصل موسى بن نصير إلى القيروان حتى وجه ثلاث سرايا لإخضاع المتمردين من البربر ، وحيث إنه لم يواجه منهم تجمعاً كبيراً فإنه اكتفى بإرسال هذه السرايا ، وفي ذلك كسب للوقت حيث عاد قادة تلك السرايا بالنصر والغنائم ، وكان أهم هذه المواقع التي أخضعها جبلُ « زغوان » الذي كان منيعاً وكان البربر يلجئون إليه .

ولما تم إخضاع المغرب الأدنى وجّه ألف فارس إلى قبيلتي هواره
ورناتة من البربر في المغرب الأوسط فأغاروا عليهم وقتلوا منهم
وسبوا، ثم عرضوا الصلح فصالحوهم ، وكذلك صالح موسى قبيلة
كتامة .

ثم هاجم موسى قبيلة صنهاجة وهي من القبائل المتمردة ، فقتلهم
قتل الفناء وسبى منهم كثيرا .

أما أهل سجومة الذين سبق أن أوقعوا بالمسلمين على غرة منهم
وقتلوا عقبة بن نافع ومن معه فقد غزاهم موسى بعشرة آلاف، وأعطى
اللواء ابنه مروان ، حتى إذا كان بمكان يقال له « سجن الملوك » خلف
الأنقال وتجرد في الخيول حتى انتهى إلى نهر يقال له : « نهر ملويه »
فقطع النهر ، فلما وصل إليهم وجدهم قد تأهبوا له فاقتتلوا قتالا
شديداً في جبل شديد لا يوصل إليهم إلا من أبواب معلومة، وبعد
قتال استمر ثلاثة أيام انهزم أهل سجومة ففتح المدينة وقتل ملوكها،
وأمر أولاد عقبة بن نافع (عياضاً وعثمان وأبا عبيدة) أن يأخذوا حقهم
من قتل أبيهم فقتلوا من أهل سجومة ستمائة من كبارهم .

هذا وإن انتصار المسلمين على أهل تلك المدينة مع كونهم في
جبل منيع لا يوصل إليه إلا من أبواب معلومة يعتبر مثالا على تفوق
المسلمين الباهر من الناحية العسكرية .

وهكذا أخضع موسى قبائل البربر التي شقت عصا الطاعة بعد
مسير حسان بن النعمان إلى المشرق ، وكذلك أخضع القبائل التي لم
تكن خضعت بعد للمسلمين .

فتح مدينة طنجة :

ثم سار موسى يفتح المدن ويخضع القبائل حتى دانت له بلاد المغرب كلها، ولم يبق أمامه إلا منطقة « طنجة » وكانت تخضع للأمير الرومي جوليان . فزحف نحوها موسى وجعل على مقدمته مولاه طارق بن زياد ومازال يقاتل البربر ويفتح المدائن حتى بلغ مدينة طنجة ، فلما دنا منها بث سرايا لإخضاع ماحولها من البلاد ، وحاصر طنجة حتى افتتحها ونزلها وهو أول من نزلها واختط فيها من المسلمين فأسلم أهلها وجعلها محط إقامة للمسلمين كالقيروان .

أعمال ابن نصير الإصلاحية :

عاد موسى بن نصير إلى القيروان بعدما نشر الإسلام في البربر، وقد أبقى عندهم من يعلمهم الإسلام ويقرئهم القرآن ويفقههم في الدين، وولى على طنجة وأعمالها مولاه طارق بن زياد وترك عنده تسعة عشر ألفا من البربر بالأسلحة والعدة الكاملة ، وكانوا قد أسلموا وحسن إسلامهم .

ولم يبق من بلاد المغرب بيد الكفار إلا منطقة سبتة التي كانت في مواجهة الأندلس فكان أهل الأندلس يمدونها بالمؤن والسلاح حتى استطاع أهلها أن يصمدوا أمام المسلمين فتركها موسى بن نصير لجولة قادمة، ولكن كان قد أمن على بلاد المغرب من حولها في طنجة حيث أبقى طارق بن زياد ومعه ذلك الجيش الكبير من البربر والمسلمين^(١) .

(١) البيان المغرب ١/ ٤٠ - ٤١ ، الكامل في التاريخ ٤/ ١١٢ .

وانظر قادة فتح المغرب ١/ ٢٢٨ - ٢٣٧ .

وهكذا تبين لنا مقام به موسى بن نصير من الأعمال الجهادية في بلاد المغرب بأجزائه الثلاثة الأدنى وهو بلاد تونس والأوسط وهو الجزائر والأقصى وهو المغرب حالياً تقريباً ، وتم ذلك في وقت قليل نسبياً لأن القادة السابقين من عهد عقبة بن نافع إلى عهد حسان بن النعمان قد مهدوا لذلك وفتحوا أكثر هذه البلاد ، ولكن البربر كانوا كلما فارقهم قائد قوي اغتنموا الفرصة فنقضوا عهودهم ، وكذلك كان الروم يغتزمون عهود الضعف للمسلمين وانشغالهم بمشكلاتهم الداخلية فيعودون إلى احتلال البلاد مرة أخرى .

لكن موسى بن نصير في الفتح الأخير قد قضى على هذا الوضع المضطرب حيث أبقى حاميات قوية من العرب ومسلمي البربر ، كما قام بتطهير بعض الأوكار القرية التي كان القادة العرب يتركون البربر فيها لمناعتها مثل جبل « رغوان » في تونس ، كما أنه أسس قاعدة حربية مهمة في أقصى المغرب وذلك في طنجة حيث أبقى فيها طارق ابن زياد في جيش كبير ، وبقي هو في القيروان في تونس فلم تطمع أي قبيلة من البربر في الانتفاض على المسلمين بعد ذلك ، إلى جانب أنه قام بتكثيف الجهود في الدعوة الإسلامية بين البربر حتى تحولوا إلى جنود مخلصين للإسلام ودولته .

لقد كان طغاة تلك البلاد وأصحاب الأهواء المنحرفة يغتزمون فترات الضعف وانتفاض سيادة المسلمين ليقوموا بدعوة العامة وجمعهم ، فتنحول البلاد إلى حالة من الفوضى والاضطراب ويحاول الأقوياء انتهاب الضعفاء ، ولكن ماأن يأتي قائد مسلم قوي حتى يفيء

إليه العقلاء طلبا لتخليص البلاد من تلك الحال السيئة ، ولذلك كان هؤلاء خير معين لحسان بن النعمان حينما عاد مرة أخرى ليطهر البلاد من حكم الطغاة المفسدين في الأرض فتمكن بمعاونتهم من تخليص البلاد من طغاة البربر والروم كما سبق .

ثم فرح هؤلاء العقلاء بمجيء موسى بن نصير لما رأوا فيه من الحزم والعزم القوي والعدل الشامل فيسروا له مهمة تطهير البلاد من أوكار الهدم والتدمير .

ثم لما زال حكم الطغاة سارع البربر إلى الدخول في الإسلام حتى تكون منهم جيوش قوية كانت خير معين للعرب في حماية تلك البلاد من طغاة البربر والروم ، حيث لم يكن بإمكان العرب لقلتهم أن يسيطروا نفوذهم على شمال أفريقيا ، تلك المنطقة الواسعة فكانوا قبل انتشار الإسلام بين البربر كلما اخضعوا منطقة انتقضت عليهم مناطق أخرى .

وكان من حسنات موسى بن نصير إسرعه في تكوين جيوش من مسلمي البربر وحسن اختياره للقادة منهم من أمثال طارق بن زياد الذي طار ذكره بعد ذلك في فتح الأندلس .

لقد استطاع ابن نصير بمعونة من معه من القادة والدعاة أن يحولوا بتوفيق الله أولئك التائهين الذين كانوا يصرفون طاقتهم في تأمين شهواتهم الدنيوية إلى مجاهدين يحملون بأفكارهم الهدف الأعلى الذي يقاتلون من أجله وهو إعلاء كلمة الإسلام ، ثم إنهم لم يُحرَموا

مع العمل لهذا الهدف من الحصول على ما يريدون من الدنيا بالغنائم المباحة التي يصرفونها فيما يرضي الله تعالى .

وهكذا يستطيع القائد المسلم الذي نور الله بصيرته أن يتزعج من الطغاة الذين يتزعمون الناس أعداداً هائلة من الشباب الذين كانوا يعملون من غير هدف إلا الخضوع لتوجيهات هؤلاء الأبالسة الذين يغتسمون نداء الشهوات لدى هؤلاء الشباب فيحققون لهم بعض ما يريدون في مقابل سيادة الفوضى وترويع الأمنين ، وقصر الفكر على متطلبات الحياة الدنيا والغفلة عن الآخرة .

لقد استطاع ابن نصير وأمثاله من القادة العظماء بالتزامهم بالهدف الإسلامي واستقامتهم على المنهج الرباني أن يحرروا أولئك العبيد من رق عبودية الطغاة المتجبرين ، وأن يحولوهم إلى جنود يبذلون طاقتهم في عملية التحرير هذه ليحرروا أقواماً آخرين مازالوا يرحلون تحت نير العبودية الخائفة ، بدلا من أن يبذلوا طاقتهم في الإغارة على الأمنين وقطع السبل وإشاعة الفوضى والاضطراب في حياة البشر ، فتحول المغرب كله في الأخير إلى قاعدة انطلاق كبرى نحو فتح الأندلس ونشر الإسلام فيها ونقل أفرادها من عبودية البشر إلى عبودية رب البشر جل جلاله ، بعدما كان المغرب مسرحاً للغارات الهمجية التي لا هدف لها إلا تأمين متطلبات هذه الحياة الفانية، وإرضاء الطغاة الظالمين الذين انتهكوا حقوق البشر ، وسلبوا من الإنسان حرية التفكير ، وحولوا أفراد مجتمعهم إلى قطاعات من العبيد تُفكر حيث يصوغ لها التفكير زعمائها ، وتنطلق في السلوك حيث يرسم لها

خطة العمل كبراؤها ، من غير هدف أعلى يحكم تصرفات القادة والجنود .

جهود ابن نصير في الجهاد البحري :

هذا وإلى جانب ما قام به موسى بن نصير من إخضاع بلاد المغرب فإنه توجه باهتمامه إلى الجهاد البحري حيث أكمل العمل الذي بدأ به حسان بن النعمان من إعداد مصنع كبير لبناء السفن في تونس وإصلاح الميناء فيها ، ثم أمر بصناعة مائة مركب .

وبعد الانتهاء من إعداد المراكب وجّه حملة بحرية بقيادة ابنه عبدالله إلى جزيرة « صقلية » فافتتح مدينة فيها وعاد سالماً غانماً .

كما أنه بعث عياش بن أخيل إلى « صقلية » فأصاب مدينة « سرقوسة » وبعث أيضاً عبد الله بن مرة إلى جزيرة « سردينيا » فافتتح مدائنها .

وكذلك جهز موسى ولده عبد الله إلى جزيرتي « ميورقه » و« منورقه » في البحر الأبيض بين صقلية والأندلس فافتتحهما (١) .

وهكذا كان موسى بن نصير موفقاً حينما قام ببناء ذلك الأسطول والشروع في غزو جزر البحر حتى يقطع الطريق على الروم الذي كانوا دائماً يهددون أمن شمال أفريقيا ، وبهذه الغزوات البحرية الناجحة وبالقبض على معاقل الروم في ساحل البحر الأبيض انقطعت حملات الروم التي سبق ذكر شيء منها .

(١) قادة فتح المغرب ٣٨/١ - ٤٠ نقلاً عن الإمامة والسياسة ٧٠/٢ - ٧١ النجوم

الزاهرة ٢١٦/١ ، العبر ١٠٤/١ ، شذرات الذهب ٩٨/١ ، البداية ٧٧/٩ .

ولقد كان هذا الاهتمام بالغزو البحري وماتم من النجاح فيه ممهدا
للغزو الأكبر والفتح الأعظم الذي تم في الأندلس بعد ذلك .

* * *

مواقف وعبد
فى
فتوح الأندلس

– جهاد طريف بن مالك –

كان مما هياه الله تعالى للمسلمين أنه كان بين جوليان حاكم مدينة «سبته» وبين لُذريق حاكم الأندلس عداوة ومنافسة ، فأرسل جوليان إلى موسى بن نصير رسالة يعرض فيها تسليم مدينة سبته ويدعوه لفتح الأندلس ، وقد صادف ذلك رغبة في نفس موسى وطموحاً منه لنشر الإسلام في تلك البلاد .

كتب موسى إلى الوليد بن عبد الملك يخبره بما جرى بينه وبين حاكم سبته ويستأذنه في غزو الأندلس ، فكتب إليه الوليد: بأن يختبرها بالسرايا وأن لا يغرر بالمسلمين ، فبعث موسى عند ذلك رجلاً من البربر وهو طريف بن مالك ويكنى بأبي زرعة في مائة فارس وأربعمائه راجل ، فجاز البحر في أربعة مراكب حتى نزل ساحل البحر في الأندلس فيما يحاذي « طنجة » وهو الذي عرف بعد ذلك بجزيرة طريف فأغار منها على مايلها حتى بلغ مدينة « الجزيرة الخضراء » ورجع سالماً ، وذلك سنة إحدى وتسعين للهجرة .

وقد كانت هذه الرحلة استطلاعية لمعرفة قوة العدو وطبيعة البلاد .



فتوحات طارق بن زياد

في رجب سنة اثنتين وتسعين للهجرة جهز موسى جيشًا من العرب والبربر يبلغ سبعة آلاف بقيادة طارق بن زياد ، وقد استفاد المسلمون من المعلومات التي أتى بها طريف بن مالك حيث سار طارق بجيشه من سبتة حتى نزل بالجبل المقابل لها والذي سمي فيما بعد «جبل طارق» ، بينما سار طريف قبل ذلك من طنجة ونزل فيما يقابلها حيث سمي جزيرة طريف ، ثم اتجه شرقا نحو جبل طارق، ولعله رأى أنه أفضل مكان لنزول الجيش الإسلامي لمناعته وقربه من سبتة مركز الانطلاق .

وقد سار طارق بالدفعة الأولى من جيشه على السفن الأربع، ووجد عند الساحل بعض الروم وقوفا فمنعوا المسلمين من النزول، فلم يقاومهم لأنه قصد الدخول بسرية حتى يتم اجتماع جنده ويتأهب للقاء عدوه فعدل إلى مكان آخر فيه وعورة فقام هو وجنده بتسهيله حتى نزلوا ولم يعلم بهم أهل البلاد ، ثم استقر في الجبل الذي رآه مكانا ملائما للحرب ورجعت السفن تنقل بقية الجيش حتى توافى جميع أصحابه عند الجبل وذلك في شعبان من سنة اثنتين وتسعين .

وقبل أن أذكر ما قام به طارق بعد ذلك فإنني أحب أن أشيد بهذه الخطة الحربية الممتازة التي سار عليها طارق بتوجيه موسى بن نصير حيث استطاع اختيار المكان الملائم للتحصن من الأعداء حتى يتم اجتماع الجيش كله، إذ أن هناك احتمالا كبيرا أن يهاجم الأعداء جيش المسلمين قبل تكاملهم، فوجودهم في ذلك الجبل يعطيهم مقدرة على

الدفاع عن أنفسهم ، ثم إن مما يُشاد به مقدرة طارق وجيشه علي التكتّم عن الأعداء حيث دخلوا ولا يعلم الأعداء أنهم محاربون ، ثم مازالوا يتجمعون في ذلك الجبل حتى كمل عددهم من غير أن يشعر به عدوهم مع أن تلك المنطقة كان بها أمير من قبل لذريق ومعه جيش معدّ لحماية تلك المنطقة .

ثم سار طارق منحدرًا نحو الجزيرة الخضراء ، وقد جرت بينه وبين القوط مناوشات حربية انتصر فيها المسلمون ، وكان قائد الروم «تُدْمير» الذي كان واليا على تلك المنطقة ، وقد كتب إلى «لُذريق» يعلمه بأن قوما لا يدري من أهل الأرض أم من أهل السماء قد وطئوا إلى بلادنا وقد لقيتهم فلتنهض إليّ بنفسك .

وهكذا وصف المسلمين بوصف يدل على فزعه منهم ، وأن قدومهم كان مفاجأة كبرى له ، وكونه يتشكك في حقيقة أمرهم هل هم من أهل الأرض أم من أهل السماء ، يدلنا على ما كان يتمتع به أولئك الغزاة المسلمون من حيوية وثابة واندفاع عارم أذهل القوط وجعلهم في حيرة من أمرهم .

إن أولئك الكفار لم يألّفوا ذلك الهجوم الصاعق والارتقاء المتفاني في أحضان الموت فشكّوا في كون أولئك المهاجمين من جنس البشر العاديين .

المعركة الفاصلة مع حاكم الأندلس :

لما علم حاكم الأندلس لُذريق بزحف المسلمين بدأ يجهز جيشًا كبيرًا ليزحف به نحو الجنوب ، وعلم طارق بأخبار هذا التجمع

الكثيف، - وهذا يدل على دقة رصد المسلمين لتحركات أعدائهم - فكتب إلى موسى بن نصير يخبره بذلك ويستمده ، فأرسل إليه قرابة خمسة آلاف مجاهد بقيادة طريف بن مالك ، حملتهم سفن المسلمين، وكان موسى بن نصير مذوَّجَه طارقاً أخذ في عمل السفن حتى صارت معه سفن كثيرة ، فحمل إليه خمسة آلاف ، فتوافى المسلمون عند طارق اثني عشر ألفاً .

وقد جمع لذريق جيشاً كبيراً هو مائتا ألف وأربعين ألفاً حسب اختلاف الروايات ، وقد كانوا مغرورين بكثرتهم وقوة استعدادهم حتى إنهم حملوا معهم الجبال على دواب خاصة لكثاف أسرى المسلمين .

واستعد الفريقان للقتال ، وكان أكثر جيش طارق رَجَالَةً حيث لم يكن معهم من الخيول إلا القليل بينما كان جيش القوط يملكون الكثير منها (١) .

هذا وقد قال المؤرخ أحمد بن محمد المقرئ في بيان أحداث هذه المعركة وما بعدها :

وقال الرازي : كانت الملاقاة يوم الأحد لليلتين بقيتا من شهر رمضان ، فاتصلت الحربُ بينهم إلى يوم الأحد لخمس خلّون من شوال بعد تتمة ثمانية أيام ، ثم هزم الله المشركين ، فقتل منهم خلق عظيم ، أقامت عظامُهم بعد ذلك بدهر طويل ملبسة بتلك الأرض ،

(١) انظر نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب للمقرئ ٢٢٤/١ - ٢٤٢ .

وانظر التاريخ الأندلسي للدكتور عبد الرحمن الحجي / ٤٧ - ٦٧ .

قالوا : وحاز المسلمون من عسكرهم مايجلُّ قدره ، فكانوا يعرفون كبار العجم وملوكهم بخواتم الذهب يجدونها في أصابعهم ويعرفون من دونهم بخواتم الفضة ، ويميزون عبيدهم بخواتم النحاس ، فجمع طارق الفيءَ وخَمَسَهُ ، ثم اقتسمه أهله على تسعة آلاف من المسلمين سوى العبيد والأتباع ، وتسامع الناس من أهل برّ العدوة ^(١) بالفتح على طارق بالأندلس وسعة المغانم فيها ، فأقبلوا نحوه من كل وجه ، وخرقوا البحر على كل ماقدروا عليه من مركب وقُشْر ^(٢) ، فلحقوا بطارق ، وارتفع أهل الأندلس عند ذلك إلى الحصون والقللاع ، وتهاربوا من السهل ، ولحقوا بالجلال ^(٣) .

وهكذا عَرَضَتْ كتب التاريخ هذه المعركة عرضاً موجزاً جداً بينما كانت معركة كبيرة وحاسمة حيث فتحت الباب للمسلمين ليتوغلوا بعد ذلك في فتح الأندلس دون مقاومة كبيرة إلا في معارك محدودة . ولاشك أن تضحيات كبيرة قد قدمها المسلمون خلال تلك الأيام الثمانية التي ظنوا فيها فناءهم كما جاء في بعض الروايات ، كما أنهم قد توجهوا في تلك المعركة بإخلاص وروح معنوية عالية غطت على جميع جوانب النقص الكثيرة بالمقارنة بأعدائهم ، وإن أبلغ وصف لشجاعة هؤلاء المجاهدين المذهلة ، وإقدامهم الذي لاتحدُّ منه العقبات ولا تقف دونه السدود قول حاكم تلك الولاية في وصفهم « لا يُدرى

(١) يعني في المغرب الأقصى .

(٢) القشر الزورق الصغير .

(٣) نفع الطيب ١/ ٢٤٣ ، وانظر البيان المغرب لابن عذاري المراكشي ٨/ ٢ .

أَمِنْ أَهْلِ الْأَرْضِ أَمْ مِنْ أَهْلِ السَّمَاءِ » وإذا كان لا يدري فإننا نقول :
بل هم قدر الله تعالى النافذ وقضاؤه الذي لا يرد .

ومما يؤسف له أن كتب التاريخ لم تسجل أحداث هذه المعركة
الكبيرة إلا في بضعة أسطر ، ولقد كنّا نود أن نعرف الأحداث اليومية
لتلك المعركة وما جرى فيها من توضّحات ومواقف عالية من الصمود .

لقد كان المسلمون مقدّمين على خوض تلك المعركة الهائلة وهم
فعلاً يتصورون إحدي الحسينيين . . . فإما شهادة ينالون بها المقامات
العليا في الآخرة وإما نصر ينالون به المقام الرفيع في الدنيا إلى جانب
مأعده الله تعالى لهم في الآخرة ، فلذلك كان قتالهم قتال المستميت
وأصبحت طاقتهم أعلى بكثير من طاقة أعدائهم ، وصبرهم على
الشدائد أشد بكثير من صبر أعدائهم ، فكانت لهم نهاية المعركة .

هذا ولم يكن موسى بن نصير وهو المسئول الأول عن ذلك الفتح
بمعزل عن أحداث هذه المعركة ومابعداها ، بل كان شديد الاهتمام بأمر
أولئك المجاهدين ، فكان إلى جانب ماقام به من إمدادهم بالجنود
معهم بدعائه وتضرعه إلى الله تعالى ، كما قال ابن الكردبوس :
« وكان موسى بن نصير حين أنفذ طارقاً مكبّاً على الدعاء والبكاء
والتضرع إلى الله تعالى والابتهاال إليه في أن ينصر جيش المسلمين ،
وماعلم أنه هُزم له جيش قط » (١) .

وهذا يدلنا على صفة من صفات موسى بن نصير المهمة التي
كانت وراء انتصاراته العظيمة ، وهي قوة صلته بالله تعالى وشعوره

(١) التاريخ الأندلسي / ٦٧ ، عن تاريخ الأندلس لابن الكردبوس / ٤٦ - ٤٧ .

الصادق بأن النصر بيد الله سبحانه وإن اختلفت موازين التكافؤ في المعركة .

فتح عدد من مدن الأندلس :

قال المقرئ : ثم أقبل طارق حتى نزل بأهل مدينة شذونة ، فامتنعوا عليه ، فشدد الحصر عليهم حتى نهكهم وأضرهم ، فتهيأ له فتحها عنوة ، فحاز منها غنائم ، ثم مضى منها إلى مدور ، ثم عطف على قرمونة . فمر بعينه المنسوبة إليه ، ثم مال على إشبيلية فصالحه أهلها على الجزية ، ثم نازل أهل أستجة وهم في قوة ومعهم فل عسكر لذريق ، فقاتلوا قتالا شديداً حتى كثر القتل والجراح بالمسلمين ، ثم إن الله تعالى أظهر المسلمين عليهم ، فانكسروا ، ولم يلق المسلمون فيما بعد ذلك حرباً مثلها ، وأقاموا على الامتناع إلى أن ظفر طارق بالعلاج صاحبها ، وكان مغترّاً سيء التدبير ، فخرج إلى النهر لبعض حاجاته وحده ، فصادف طارقاً هناك قد أتى لمثل ذلك ، وطارق لا يعرفه ، فوثب عليه طارق في الماء ، فأخذه وجاء به إلى العسكر ، فلما كاشفه اعترف له بأنه أمير المدينة ، فصالحه طارق على ما أحب ، وضرب عليه الجزية ، وخلق سبيله ، فوفى بما عاهد عليه .

إلى أن قال : ففرق طارق جيوشه معهم من أستجة ، فبعث مغيثاً الرومي مولى الوليد بن عبد الملك إلى قرطبة ، وكانت من أعظم مدائنهم ، في سبعمئة فارس ، لأن المسلمين ركبوا جميعاً خيل العجم ، ولم يبق فيهم راجل ، وفضلت عنهم الخيل ، وبعث جيشاً آخر إلى مالقة ، وآخر إلى غرناطة مدينة البيرة ، وسار هو في معظم

الناس إلى كورة جيان يريد طليطلة ، وقد قيل : إن الذي سار لقرطبة طارق بنفسه ، لامغيث ، قالوا : فكمنا بعدوة نهر شقندة في غيضة أرز شامخة ، وأرسلت الأدلاء فأمسكوا راعي غنم فسئل عن قرطبة فقال : رحل عنها عظماء أهلها إلى طليطلة ، وبقي فيها أميرها في أربعمائة فارس من حماتهم مع ضعفاء أهلها ، وسئل عن سورها فأخبر أنه حصين عال فوق أرضها إلا أنه فيه ثغرة (١) ووصفها لهم ، فلما أجنهم الليل أقبلوا نحو المدينة ووطأ الله لهم أسباب الفتح بأن أرسل السماء برداذا أخفى دققة حوافر الخيل ، وأقبل المسلمون رويداً حتى عبروا نهر قرطبة ليلاً ، وقد أغفل حرس المدينة احتراس السور ، فلم يظهروا عليه ضيقاً بالذي نالهم من المطر والبرد ، فترجل القوم حتى عبروا النهر وليس بين النهر والسور إلا مقدار ثلاثين ذراعاً أو أقل ، وراموا التعلق بالسور فلم يجدوا متعلقاً ، ورجعوا إلى الراعي في دلالتهم على الثغرة التي ذكرها ، فأراهم إياها ، فلذا بها غير متسهلة التسليم ، إلا أنه كانت في أسفلها شجرة تين مكنت أفنانها (٢) من التعلق بها ، فصعد رجل من أشداء المسلمين في أعلاها ، ونزع مغيث عمامته فناوله طرفها ، وأعان بعض الناس بعضاً حتى كثروا على السور ، وركب مغيث ووقف من خارج ، وأمر أصحابه المرتقين للسور بالهجوم على الحرس ، ففعلوا ، وقتلوا نَقراً منهم ، وكسروا أقفال الباب ، وفتحوه ، فدخل مغيث ومن معه وملكوا المدينة عنوة ، فصعد إلى البلاط منزل الملك ومعه أدلاؤه ، وقد بلغ الملك دخولهم

(١) ثغرة : مكان يمكن الدخول منه .

(٢) أفنانها : أغصانها .

المدينة ، فبادر بالفرار عن البلاد في أصحابه ، وهم زهاء أربعمائة ، وخرج إلى كنيسة بغربي المدينة ، وتحصن بها ، وكان الماء يأتيها تحت الأرض من عين في سفح جبل ، ودافعوا عن أنفسهم ، وملك مغيث المدينة وماحولها .

قال : وأما من وُجِّه إلى مالقة فإنهم فتحوها ، ولجأ علوجها إلى جبال هنالك ممتنعة ، ثم لحق ذلك الجيش بالجيش المتوجه إلى البيرة ، فحاصروا مدينتها غرناطة ، فافتتحوها عنوة .

قال : ومضى الجيش إلى تدمير ، وتدمير : اسم العليج صاحبها ، سميت به واسم قصبتها أريولة ، ولها شأن في المنعة ، وكان ملكها عليجا داهية ، وقتلهم مضحيا ، ثم استمرت عليه الهزيمة في فُحصها ، فبلغ السيف في أهلها مبلغا عظيما أفنى أكثرهم ولجأ العليج إلى أريولة في يسير من أصحابه لا يغنون شيئا ، فأمر النساء بنشر الشعور وحمل القصب والظهور على السور في زي القتال متشبهات بالرجال ، وتصدر قدامهن في بقية أصحابه يُغالط المسلمين في قوته على الدفاع عن نفسه ، فكره المسلمون مراسه ^(١) لكثرة من عاينوه على السور ، وعرضوا على السور ، وعرضوا عليه الصلح ، فأظهر الميل إليه ، ونكَّرَ زيَّه ، فنزل إليهم بأمان على أنه رسول ، فصالحهم على أهل بلده ، ثم على نفسه ، وتوثق منهم ، فلما تم له من ذلك ما أراد عرفهم بنفسه ، واعتذر إليهم بالإبقاء على قومه ، وأخذهم بالوفاء بعهده ، وأدخلهم المدينة ، فلم يجدوا فيها إلا العيال والذرية ،

(١) مراسه - بكسر الميم - معالجة شأنه بالقتال ومعاناة ذلك .

فندموا على الذي أعطوه من الأمان ، واسترجحوه ^(١) فيما احتال به ،
ومضوا على الوفاء له ، وكان الوفاء عادتهم ، فسلمت كورة تُدْمِر
من مَعَرَّة المسلمين ^(٢) بتدبير تُدْمِر ، وصارت كلها صلحا ليس فيها
عَنوة ، وكتبوا إلى أميرهم طارق بالفتح ، وخلفوا بقصبة البلد رجالا
منهم ، ومضى معظمهم إلى أميرهم لفتح طُلَيْطلة ^(٣) .

وهكذا سار طارق وقواده يفتحون تلك البلاد بسرعة مذهلة وبدون
مقاومة كبيرة .

لقد كان أهل الأندلس كسائر البلدان المتحضرة يعيشون آنذاك تحت
حكم طغاة متجبرين ، وكان أولئك الطغاة يتصارعون على الحكم من
أجل امتصاص خيرات البلاد والتجبر على الناس وتحويل المستضعفين
إلى مستعبدين أذلاء ، فكان أهل البلاد يتمنون الخلاص من أولئك
المتجبرين ، ولعلمهم سمعوا بما ناله أهل المغرب على يد المسلمين الفاتحين
من أمن ورخاء وعدالة ، فأصبحوا يتمنون الخلاص من طغاتهم على
أيدي المسلمين ، ولذلك وجدناهم يفتحون لهم صدورهم قبل أن
يفتحوا لهم بلادهم ويسارعون في تقديم الولاء لهم ، ويخذلون
حكامهم الذين عانوا منهم الأمرين ، ولقد انتشر الإسلام سريعا على
إثر انتشار المسلمين في الأندلس فكانت أخلاق المسلمين وعدالتهم
وتفانيهم في خدمة دينهم وترفعهم عن الدنيا مفتاح قلوب أهل تلك
البلاد .

(١) استرجحوه : عدوه راجع العقل حسن التدبير .

(٢) أي إيذاؤهم لهم .

(٣) نفح الطيب ١/٢٤٣ - ٢٤٥ ، وانظر البيان المغرب ٩/٢ - ١٠ .

وفي خبر تدمير ومعاملة المسلمين لصاحبها منقبة عالية للمسلمين حيث وفى المسلمون بعهدهم لذلك الحاكم الأندلسي مع سبق خديعته إياهم ، وذلك لشدة اهتمامهم بالوفاء بالعهد الذي ظلوا طيلة فتوحاتهم في الشرق والغرب مشهورين به ، ومن المؤكد أن سمعتهم العالية في ذلك قد انتقلت من المغرب إلى الأندلس وإلا فإنه من المستبعد أن يغامر ذلك الحاكم بنفسه حيث خرج للتفاوض مع المسلمين ثم عرفهم بنفسه بعد تمام الصلح .

إنه في حساب الربح والخسارة من الناحية الحربية قد يقال إن المسلمين قد خسروا بهذا الصلح سبع مدن لم يكن فيها إلا قوة ضعيفة للأعداء وأنه كان بإمكان المسلمين أن يستأصلوا أعداءهم وأن يستولوا على تلك المدن بما فيها من متاع الدنيا ، ولكن المسلمين في حساب الإسلام قد كسبوا مكسبًا عظيمًا حيث تقدموا شوطًا عاليًا في الرقي الأخلاقي الذي يعتبر من أهم مقومات الدعوة الإسلامية .

ولاشك أن هذا السلوك الحميد وأمثاله مما يفسر به سرعة دخول أهل تلك البلاد في الإسلام ، وتحوُّلهم إلى جنود يخدمون الإسلام ويقىمون صرح دولته في بلادهم .



فتوحات موسى بن نصير

أما بقية فتوح الأندلس فقد شارك فيها موسى بن نصير أمير المغرب، وهو الذي بعث طارق بن زياد لفتح الأندلس .

وقد كان موسى بن نصير قد أشفق على وجود المسلمين في الأندلس حيث توغل طارق في الفتح شمالا وبقي شرق البلاد وغربها لم يفتح فخشي أن يطوقه الأعداء ، وجاء في بعض الروايات أن طارقا كتب إلى موسى يستمدد لما خشي من إحاطة الأعداء به .

وقد عبر موسى مضيق جبل طارق في جيش قوامه ثمانية عشر ألفا وذلك في رمضان من عام ثلاثة وتسعين للهجرة ، واستخلف ابنه عبد الله على أفريقية .

وبعد وصوله إلى الجزيرة الخضراء استشار مستشاريه في خطة الفتح وذلك في المسجد الذي بناه هناك وهو الذي عرف بمسجد الرايات لكثرة الرايات في ذلك الجيش ، وبعد هذه الشورى اتجه إلى الشمال الغربي من الأندلس وذلك لحماية الفتح الإسلامي مما يبيته له الأعداء ولفتح بلاد لم يصل إليها الفتح الإسلامي ، ففتح مدينة شذونه ثم اتجه إلى قرمونة وكانت من أشد مدن الأندلس تحصينا وقد حاصرها المسلمون وأبى أهلها أن يستسلموا ، وكان في معية موسى جماعة من حلفائه من أتباع يوليان حاكم سبته فأخبروه أن هذه المدينة لا تفتح إلا بحيلة ، فوجه إليها جماعة يوليان وطارقوا بابها على أنهم فلول من جيش البلاد .

وسار خلفهم موسى بخيله، ففتحوا لهم الباب وهجم عليهم المسلمون فقتلوا الحراس واستولوا على المدينة .

وهكذا تم فتح تلك المدينة بجهود يسيرة بتوفيق الله تعالى ثم بسداد الرأي وحسن التدبير من قائد المسلمين .

ثم توجه موسى بجيشه إلى أشبيلية وهي من أعظم مدن الأندلس وكانت عاصمة البلاد قبل ملك القوط ، فلما ملكوا البلاد نقلوا العاصمة إلى طليطلة ، وقد حاصر المسلمون أشبيلية عدة أشهر ثم فتحها الله لهم (١) .

وقد اتجه موسى بن نصير بعد ذلك إلى مدينة «ماردة» التي كانت من أشد مدن الأندلس تحصينا، حيث إن عرض سورها اثنا عشر ذراعاً وارتفاعه ثمانية عشر ذراعاً، ولحصانتها فإن فلول جيش القوط المنهزمة قد لجأت إليها، فتجمع فيها جيش قوي ، وقد حاصرها موسى عدة شهور دون جدوى، ولكن موسى لم ييأس حيث استخدم دبابة من صنع المسلمين آنذاك حمل فيها الجنود إلى السور فبدؤوا ينقبون في السور لإحداث ثغرة فيه ، فلما استطاعوا المضي فيه قليلاً ثار عليهم جنود العدو فاستشهد المسلمون تحت الدبابة فسُمي ذلك البرج برج الشهداء .

وبالرغم من عدم وصول المسلمين إلى ما يريدون من فتح السور

(١) نفح الطيب ٢٥١/١ - ٢٥٣ ، وانظر البيان المغرب ١٣/٢ والتاريخ الأندلسي /

فإن أهل البلاد وافقوا على الصلح لما رأوا من إصرار المسلمين على حصارهم (١).

هذا وإن في هذا الخبر دلالة على تفوق المسلمين من الناحية المادية حيث استطاعوا صناعة الدبابات حسب الإمكانيات المتاحة لهم في ذلك الوقت ، فلم يكتفوا بقوتهم المعنوية الفائقة بل أضافوا إليها الاستعداد الحربي القوي المناسب لعصرهم .

ومن الملاحظ سهولة فتح الأندلس وأن بعض تلك الفتوحات كانت عن طريق الصلح ، وذلك لأن القوط قد تشتتوا وزالت دولتهم وهم الذين كانوا يتحمسون للقتال ويدافعون عن دولتهم ، أما عامة أهل الأندلس فقد شعروا بالأمن والطمأنينة والعدالة بوجود المسلمين فكانت مقاومتهم إياهم ضعيفة ، ولكن مع هذا فلاشك أن المسلمين قد عانوا مشقة من السفر المتواصل والإقدام على مغامرات مجهولة النتائج وفي بلاد يقدّمونها لأول مرة ويجهلون دروبها ومفاجأتها .

هذا وقد عرضت كتب التاريخ أخبار هذه الفتوح بإيجاز شديد لايين إلا قليلاً من مواقف المسلمين التي لاشك أنها كانت عالية وقيمة بناء على مانتج عنها من سرعة استتباب الأمن وانتشار الإسلام وسرعة اندماج أهل البلاد مع الفاتحين .

إن جهودا كبيرة قد بذلت في الدعوة إلى الإسلام كان لها الأثر في كل هذه النتائج، وإن من أبرز هذه الجهود القدوة الحسنة والتمثيل الصادق للإسلام، وخاصة من القادة والأمراء، الذين كانوا على جانب

(١) فتح الطيب ٢٥٢/١ ، وانظر البيان المغرب ١٤/٢ ، والتاريخ الأندلسي / ٧٤ .

كبير من فهم الإسلام والرغبة الصادقة في نشره والحكم به بين الناس .
هذا وما ينبغي الإشادة به أن هذه الفتوحات الكبيرة المتواصلة
جرت من موسى بن نصير وقد جاوز الخامسة والسبعين من عمره ،
ومع ذلك فإنه كان في همّة الشباب وحيويتهم حتى إنه قد عزم في
نهاية فتح الأندلس على فتح البلاد الأوربية وغزو القسطنطينية من
الغرب لولا أن الوليد بن عبد الملك أمره بالتوقف والقعود إلى دمشق
وشدّد عليه في ذلك .

وما يدل على صلاحه أنه دعا الله تعالى أن يرزقه الشهادة أو
يموت في المدينة فأجاب الله دعاءه ، حيث مات في المدينة وهو ذاهب
إلى الحج برفقة أمير المؤمنين سليمان بن عبد الملك عام سبعة وتسعين
وعمره ثمان وسبعون سنة أو يزيد (١) .

(١) التاريخ الأندلسي ١٢٧ عن نفع الطيب ٢٨٣/١ ، معالم الإيمان ٢٠١/١ ، رياض
النفوس ٧٨/١ .

جهاد ولاية الأندلس في أواخر العهد الأموي

لما تولى إمارة الأندلس السَّمحُ بن مالك الخولاني عام مائة كان له نشاط واسع في الجهاد في جنوبي فرنسا ، وكان بينه وبين أهلها معارك عديدة ، منها معركة بين المسلمين وحاكم « أقطانية » وقد اشتد فيها القتال واستشهد فيها عدد كثير من المسلمين منهم الوالي السَّمح ابن مالك الخولاني . وذلك في يوم التروية أو عرفة سنة اثنتين ومائة .

ولما تولى إمارة الأندلس عنبسة بن سحيم الكلبي في صفر عام ثلاثة ومائة استأنف الجهاد في جنوبي فرنسا خلف جبال البُرت ، وقد توغل في بلاد الفرنجة واستشهد سنة سبع ومائة (١) .

معركة بلاط الشهداء :

تولى إمارة الأندلس عبد الرحمن الغافقي في شهر صفر من عام اثني عشر ومائة ، وقد واصل حركة الجهاد الإسلامي خلف جبال البرت وتوغل في فرنسا ، وكانت له مع الإفرنج مواقع كثيرة ، إلى أن غزاهم في عام خمسة عشر ومائة ، وكان الفرنج قد استعدوا للمسلمين بجيش كبير مجموع من عدة دول أوربية بقيادة شارل مارتل ، وقد التقى المسلمون بأعدائهم في شهر رمضان المبارك من ذلك العام ، واستمرت المعركة حوالي عشر أيام ، وكانت نهايتها استشهاد قائد المسلمين . عبد الرحمن الغافقي وعدد كبير من جيشه ، وقد سُميت المعركة لذلك « بلاط الشهداء » .

(١) نفح الطيب للمقري ٢١٩/١ - ٢٢٠ ، التاريخ الأندلسي للدكتور عبد الرحمن الحجي / ١٨٥ - ١٩١ .

كانت هذه المعركة حاسمةً بين المسلمين والنصارى حيث تعرّس الجهاد الإسلامي بعدها ، وكانت نتيجتها خسارةً كبرى لأوروبا حيث حرّمت من نور الإسلام وحضارة المسلمين ، ولذلك اعتبرها الكتاب الغربيون المنصفون نكبةً كبيرةً أصابت أوروبا وضربةً عنيفةً حرّمتها من الحضارة المنيرة وكرامة الإنسان (١) .

وهكذا وصلت إلينا أحداث هذه المعركة الكبيرة وماسبقها من معارك بشكل موجز مقتضب ، ولاشك أن وراء استشهاد هذا العدد الكبير من المسلمين أحداثٌ ضخمة ومواقف عالية .



(١) نفح الطيب ١٤/٤ - ١٥ ، التاريخ الأندلسي / ١٩٣ - ٢٠٣ .

جهاد الدولة الأموية الأندلسية

— من مواقف عبد الرحمن الداخل —

بعد أن تم القضاء على الدولة الأموية في العالم الإسلامي وخلفتها الدولة العباسية استطاع أحد شباب بني أمية أن يفر من قبضة العباسيين وأن يكون له دولة في الأندلس لاتخضع لدولة العباسيين ، وهو عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان ، وقد دخل الأندلس في سنة ثمان وثلاثين ومائة فأقام فيها دولة لبني أمية بعد حروب بينه وبين معارضيه ويعرف بعبد الرحمن الداخل لدخوله الأندلس (١) .

ولقد كان عهد عبد الرحمن الداخل عهد حروب داخلية بينه وبين المناوئين له ، وقد تمكن بعد صراع مرير طويل من القضاء عليهم جميعا ، وقد كان يتمتع بالشجاعة والصبر والدهاء ، ولقد كان لكفاءته القيادية أثر واضح في نجاحه ، ولما كان ليس من منهج هذا الكتاب الخوض في المعارك التي جرت بين المسلمين فإنني لم أتعرض للكتابة عنها ، غير أنني سأذكر شيئا عن الحرب التي كانت بينه وبين أحد مناوئيه وهو سليمان بن يقظان الكلبي لأن سليمان هذا قد استعان على عبد الرحمن الداخل بملك الإفرنج شرلمان ، وبهذا يكون سليمان الكلبي قد خان الأمانة ومكن لأعداء الإسلام من بلاد المسلمين .

وفي بيان هذه الحرب يقول الدكتور محمد السيد الوكيل :

رأى شرلمان أن الفرصة سانحة لغزو الأندلس ، وكان هذا هو

(١) الكامل في التاريخ لابن الأثير ٣٦٢/٤ - ٣٦٣ ، البيان المغرب ٤٧/٢ .

حلمه الذي كان يحلم به وبخاصة وأنه قد أنهى فتوحاته في أوروبا ، بإخضاع السكسون ، وليس عليه إلا أن يحقق حلمه ، في إقامة إمبراطورية بإخضاع الأندلس .

عبرت جيوش شرلمان جبال البرانس ، واستولى على مدينة مِجْلُونَة ، واستمر في زحفه على مدينة سرقسطة ، ولكنه وجدها وقد أغلقت أبوابها في وجهه ، حيث أحس سكانها بقيادة الحسين بن يحيى ، بخيانة سليمان بن يقظان ، وأنه يريد أن يسلم المدينة إلى شرلمان ملك الفرنجة .

كان شرلمان يحلم بطرد المسلمين من الأندلس ، وكان يمني نفسه بتحقيق هذا الحلم ، حتى وافته الفرصة ، فخرج في ربيع ١٦٣هـ - ٧٧٨م وكان يعتقد أن مدينة سرقسطة ستفتح له أبوابها ، ولكنه وجدها قد أغلقت أبوابها ، وتحصن بها أهلها ، إما رغبة من حسين بن يحيى في الانفراد بحكم المدينة أو غضباً منه على سليمان ، لأنه خان الأمانة ، ولم يرع حق عبد الرحمن الذي ولاه على المدينة .

واضطر شرلمان إلى محاصرة سرقسطة ، ولكن الحصار قد طال ، حتى يئس شرلمان من فتحها ، وإذا أضفنا إلى ذلك أن أنباء قد وصلت لشرلمان ، تحمل إليه أنباء اضطراب قد وقع في بلاده مما اضطره إلى رفع الحصار عن سرقسطة ، وعاد إلى بلده وهو يحمل معه سليمان ابن يقظان ، لأنه أخل بوعده ، ولم يسلمه المدينة كما وعده .

انسحب شرلمان عائداً بخيبة الرجاء ، ولما وصل مدينة مِجْلُونَة سحب منها حاميتها التي كان قد تركها فيها بعد الفتح ، وهدم

أسوارها، وكان الأمير عبد الرحمن الداخل قد استعد للانتقام من شرلمان، فحرض عليه قبائل البشكنس، وتعاونت هذه القبائل مع المسلمين، وأبناء سليمان الذين كانوا يحاولون إنقاذ أبيهم.

وكانت المفاجأة المفزعة لجيش شرلمان في عمرات جبال البرانس الضيقة، حيث انقضت عليه الجيوش بالسهم والحجارة، حتى قضوا على مؤخرة هذا الجيش الذي جاء به ليفتح الأندلس قضاء تاماً، وقتل كثير من قواده العظام، وقتل كذلك قائده ورفيق حياته (رولان) واشتد حزن شرلمان على هذا القائد، وكان مقتل هذا القائد موضوعاً لأنشودة من شعر الملاحم الفرنسي، تعرف بأنشودة رولان.

وفي أثناء المعركة تمكن ولدا سليمان بن يقطان من إنقاذه وتخليصه من يد الملك شرلمان، ورجعا به إلى سرقسطة.

وكانت هزيمة شرلمان هذه درساً قاسياً، وتجربة جانبها الصواب، حيث حاول تجربة حظه في فتح بلاد إسلامية، فباء بالفشل، ورجع بخيبة الأمل (١).

وهكذا استعمل عبد الرحمن الداخل دهاء فسلط القبائل المجاورة لجبال البرانس ونظمهم مع المسلمين ليقوموا بهجوم مباغت لجيش شرلمان من مجاهل تلك الجبال فأبادوا كثيراً من جيشه، فكانت تلك الحرب أنجح من المواجهة ولم تكلف المسلمين خسائر.

وفي هذه المعركة عبرة فيما حصل لسليمان بن يقطان الذي خان

(١) الامويون بين الشرق والغرب / ١٤٢/٢ عن كتاب تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس وكتاب الامويون أمراء الأندلس.

الأمانة وتحالف مع الأعداء فقد فشل في تلك المحاولة وأصبح أسيراً لدى من تحالف معه، ثم اضطر ابنه إلى أن ينضمّاً بجيشهما لجيش عبد الرحمن الداخل ليخلصا أباهما من الأسر، وهكذا تمكن عبدالرحمن من تسليط أعدائه على أعدائه حتى ظفر بعدوه الكبير شرلمان .

رأي أبي جعفر المنصور بعبد الرحمن الداخل :

نظراً لما حققه عبد الرحمن الداخل من إقامة دولة أموية في الأندلس والقضاء على جميع منافيه مع أنه كان طريد العباسيين من قطر إلى قطر فإنه قد نال إعجاب أمير المؤمنين أبي جعفر المنصور وأثنى عليه بالرغم من العداء القائم بين العباسيين والأمويين، فقد ذكر أبو عبد الله محمد ابن عذاري المراكشي أن أبا جعفر المنصور قال يوماً لبعض جلسائه : أخبروني عن صقر قريش من الملوك ! قالوا : ذاك أمير المؤمنين الذي راض الملوك وسكن الزلازل وأباد الأعداء وحسم الأدواء .

قال : ماقلتم شيئاً ، قالوا : فمعاوية ؟ قال : لا ، قالوا : فبعد الملك بن مروان ، قال : ماقلتم شيئاً ، قالوا : ياأمير المؤمنين فمن هو ؟ قال : صقر قريش عبد الرحمن بن معاوية ، الذي عبر البحار وقطع الفقر ، ودخل بلداً أعجمياً منفرداً بنفسه ، فمصرّ الأمصار وجند الأجناد ، ودوّن الدواوين ، وأقام ملكاً عظيماً بعد انقطاعه بحسن تدبيره وشدة شكيمة .

إن معاوية نهض بمركب حمله عليه عمر وعثمان ، وذللّاله

صعبه، وعبد الملك ببيعة أبرم عقدها، وأمير المؤمنين بطلب عثرته
 واجتماع شيعته، وعبد الرحمن منفرد بنفسه مؤيد برأيه مستصحب
 لعزمه، وطد الخلافة بالأندلس ، وافتتح الثغور وقتل المارقين وأذل
 الجبابرة الشائرين .

فقال الجميع : صدقت والله يا أمير المؤمنين (١).

وقد توفي عبد الرحمن الداخل بعد أن أقام دولة قوية في
 الأندلس سنة اثنتين وسبعين ومائة ، وخلفه ابنه هشام على إمارة
 الأندلس (٢) .

* * *

(١) البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب ٢ / ٦٠ .

(٢) الكامل في التاريخ ٥ / ٨٣ ، البيان المغرب ٢ / ٤٧ .

- مواقف هشام بن عبد الرحمن في الأعمال الجهادية والإصلاحية - .

مواقفه الجهادية :

من ذلك ما ذكره ابن عذاري من أن أمير الأندلس هشام بن عبد الرحمن جهز جيشا بقيادة أبي عثمان عثمان بن عبيد الله بن عثمان إلى بلاد ألبّة والقلاع ، وأنه لقي بها أعداء الله بجموعهم متوافرين فهزمهم الله على يديه ، وقُتلوا في السهل والوعر وكان عدد قتلى الأعداء أكثر من تسعة آلاف وذلك في عام ستة وسبعين ومئة .

ثم ذكر أنه في هذه السنة جهز جيشا بقيادة يوسف بن بخت إلى جليقية فالتقى ببرمود الكبير قائد الأعداء في تلك الناحية ، وأنه جرت بينهم معركة انهزم فيها عدو الله وغنم المسلمون عسكره ، وبلغ عدد قتلى الأعداء عشرة آلاف سوى من قتلوا بعد المعركة .

ثم ذكر أنه في سنة سبع وسبعين ومائة بعث جيشا بقيادة عبد الملك ابن عبد الواحد بن مغيث وذلك في فصل الصيف إلى أرض الروم التي تقع شمال الأندلس ، وأنه بقي شهورا يقاتل الأعداء ويخرب الحصون ، ثم أوقع بمدينة أربونة ، وكان فتحا عظيما مشهورا ، بلغ فيه خمس السبي خمسة وأربعين ألفا من الذهب العين .

ثم ذكر ابن عذاري أنه في سنة تسع وسبعين ومائة أغزى الإمام هشام بن عبد الرحمن عبد الكريم بن عبد الواحد بن مغيث بالصائفة ، حتى انتهى إلى مدينة أسترقة داخل جليقية . فبلغه أن إذفونش قد حشد بلاده ، واستمد البشكنش وأهل تلك النواحي التي تليه من المجوس وغيرهم ، وأنه عسكرهم ما بين حيز جليقية والصخرة ، وأنه

أذن لسكان السهل بالتفرق في شواحق جبال السواحل . فقدّم عبدالكريم فرَج بن كنانة في أربعة آلاف فارس ، ثم رحل في إثره ، فألفى أعداء الله ، فواضعهم الحرب حتى هزمهم الله ، فقتل حماتهم ، وأسر جماعة منهم ، ثم أمر بعد انحلال الحرب بقتلهم ، وبث الخيل في القرى ، فانتسفت جميع ما ألفت من زروعهم ، وخربت مامرت عليه من عمارتهم . وتقدم بعد ذلك إلى وادٍ يقال له كُوَيْثِيَّة ، فلقي به غنْدُمَارُهُ وهو في ثلاثة آلاف فارس فقاتله حتى انهزم عسكره ، وأخذ غنْدُمَارُهُ أسيراً ، وقتل من أصحابه عددٌ كثيرٌ . وأصاب العسكر جميع ما في تلك الناحية . وتقدم مستنجزاً لإذفونش ، فلما بلغه قصده إليه تنحى عن الجبل الذي كان فيه منحازاً عنه إلى حصن له ، كان قد بناه وأتقنه على وادي نلُون ، فتقرب منه عبد الكريم مُقْتَنِيّاً لآثره ، لا يمر بمنزل فيما بينه وبينه إلا حرقه ، ولا ببال إلا أصابه ، حتى أطل على الحصن فانتقل منه إلى حصن مُلكه . واحتل عبد الكريم بالحصن الذي انتقل منه ، فألفى فيه الأطمعة وضروب الذُّخْر ، وبعث في اليوم الثاني من حلوله به فرَج بن كنانة ، في عشرة آلاف فارس ، يقفوا أثره ، فلما قرب منه ، انهزم عنه وأسلم جميع عُدَّتْه وذخره ، فغنم المسلمون جميع ذلك (١) .

وهذا الاهتمام الجيد من الأمير هشام بن عبد الرحمن يدل على عنايته بحماية الدولة الإسلامية وسعيه في إقرار الأمن للمسلمين ، فإن الاستسلام لحياة الركود وتعطيل الجهاد يجعل الأعداء يطمعون في

(١) البيان المغرب ٦٣/٢ - ٦٥ .

الإغارة على بلاد المسلمين ويأخذونهم على حين غفلة منهم ، أما إذا كانت ذكريات جهاد المسلمين ماثلة في أذهانهم فإنهم يرغبون في السلامة ولا يفكرون في غزو بلاد المسلمين .
مواقفه الإصلاحية :

من أمثلة عدله ورغبته في الإصلاح ما ذكره ابن عذاري في ترجمته قال : وكان هشام يبعث إلى الكُور قوماً عدولاً يسألون الناس عن سير العمال ، ثم ينصرفون إليه بما عندهم ، فيقع نظره بهدم ما تكشفه المحنة له منهم . وإعترض له يوماً متظلمٌ من أحد عماله ، فبدر إلى الشاكي من رجال العامل من ترخاه شفقة منه على العامل . فبعث إلى الشاكي وقال له : احلف على كل ما ظلمك فيه ، فإن كان ضربك ، فاضربه ، أو هتك لك سترًا ، فاهتك ستره ، أو أخذ لك مالاً ، فخذ من ماله مثله ، إلا أن يكون أصاب منك حداً من حدود الله ! فجعل الرجل لا يحلف على شيء إلا أقيد منه . فكان زجره هكذا لعماله أبلغ فيهم من النكال والأدب . وكان كريماً عادلاً فاضلاً متواضعاً عاقلاً ، لم تُعرف منه هفوةٌ في حدائته ، ولا زلةٌ في أيام صباه . ومن كرمه أنه كان يصِرُّ أموالاً في صُرر ، ويخرج بها بين المغرب والعشاء يتفقد المسجد ، فإذا وجد واحداً يصلي في مسجد أو لا يصلي وضع بين يديه صرةً ، حتى كثرت عمارة المساجد .

وكان - رحمه الله ! - قد نظر في بنيان قنطرة قُرطبة ، وأنفق في إصلاحها أموالاً عظيمة . وتولى بناءها بنفسه ، وتعطى الأجرة بين يديه . قال ابن وضاح : لما بنى هشام القنطرة ، تكلم بعض الناس

فيه، وقالوا : إنما بناها لتصيده ونزّهته ! فحلف حين بلغه ذلك ألا يجوز عليها إلا لغزو أو مصلحة .

قال القاضي أبو معاوية : أدركتُ صدرًا من الناس يحكون أن أيام هشام هذا كانت من الدّعة والعافية والهدوء بحيث لم يُعلم لها مثل . وكان يحضر الجنائز ، ويزاحم فيها ، كأنه أحد من الناس ، تواضعًا .

وكان لبعض رجال هشام خصومةٌ في دار عند القاضي مُصعب بن عمران ، فسجّل عليه القاضي فيها وأخرجه منها ، فنهض الرجل إلى هشام ، وقال له : إن القاضي سجّل عليّ في داري التي كنت أسكنها ، وأخرجني عنها ! فقال له هشام : وماذا تُريد مني ؟ وألله لو سجّل عليّ القاضي في مقعدي هذا ، لخرجت عنه ! انقيادًا منه للحق ، رحمة الله عليه ! (١) .

فهذه أمثلة من اهتمام الأمير هشام بن عبد الرحمن بالدعوة والإصلاح والعدل ، وإذا قرنت هذه الاهتمامات مع الاهتمام بالجهاد كان في ذلك ضمان لقوة الدولة الإسلامية وبقاءها .

* * *

(١) البيان المغرب ٦٦/٢ .

مواقف الحكم بن هشام الجهادية والإصلاحية

مواقفه الجهادية :

تولى الإمرة بعد أبيه هشام الذي توفي في عام ثمانين ومائة ، وقد كانت له مواقف جهادية ، فمن ذلك ما ذكره المؤرخ ابن عذاري قال : وفي سنة ثلاث وتسعين ومائة خرج رذريق صاحب إفرنجة إلى جهة طرطوشة فأغزى الحكم ابنه عبد الرحمن في جيش كثيف ، وكتب إلى عمروس وعبدون عاملي الثغر بالغزو معه بجميع أهل الثغر ، فتقدم عبد الرحمن بالجنود وتوافت عليه الحشود وحفَّت به المطوعة ، فألفوا الطاغية خارجا إلى بلاد المسلمين ، ودارت بينهم حروب شديدة ثبت الله فيها أقدام المسلمين فانهزم المشركون ، وكانت فيهم مقتلة عظيمة ، ففني أكثرهم .

وقال أيضا : وفي سنة أربع وتسعين ومائة غزا الحكم إلى أرض الشرك . وكان السبب في هذه الغزاة أن عباس بن ناصح الشاعر كان بمدينة الفرج (وهي وادي الحجارة) . وكان العدو بسبب اشتغال الحكم بماردة وتوجيه الصوائف إليها مدة من سبعة أعوام قد عظمت شوكته ، وقوى أمره . فشن الغارات في أطراف الثغور ، يسبي ويقتل . وسمع عباس بن ناصح امرأة في ناحية وادي الحجارة ، وهي تقول : واغوثاه يا حَكَم ! قد ضيعتنا وأسلمتنا واشتغلت عنا ، حتى استأسد العدو علينا ! فلما وفد عباس على الحكم ، رفع إليه شعرا يستصرخه فيه ، ويذكر قول المرأة واستصراخها به ، وأنهى إليه عباس ما هو عليه الثغر من الوهن والتباث الحال . فرثى الحكم للمسلمين ، وحمي لنصر

الدين ، وأمر بالاستعداد للجهاد ، وخرج غازيا إلى أرض الشرك ، فأوغل في بلادهم ، وافتتح الحصون ، وهدم المنازل ، وقتل كثيراً ، وأسر كذلك ، وقفل على الناحية التي كانت فيها المرأة ، وأمر لأهل تلك الناحية بمال من الغنائم ، يصلحون به أحوالهم ويفدون سباياهم ، وخصَّ المرأة وآثرها ، وأعطاهم عدداً من الأسرى عونا . وأمر بضرب رقاب باقيهم ، وقال لأهل تلك الناحية وللمرأة : هل أغاثكم الحكم ؟ قالوا : شفا والله الصُّدُورَ ، ونكى في العدو ، وماغفل عنا إذ بلغه أمرنا ! فأغاثه الله وأعزَّ نصره !

ثم ذكر في حوادث سنة تسع وتسعين ومائة أن الحكم أغزى عمه عبد الله البلنسيَّ الغزوة الشنيعة المشهورة ، وكانت ببرشلونة : ألقى المشركين قد حلُّوا بها يوم احتلاله ، وكان يوم الخميس ، فأراد من معه مناشبة الحرب ، وتشوفوا للقتال ، فمنعهم حتى إذا كان في اليوم الثاني ، وهو يوم الجمعة وقت الزوال ، أمر بتعبئة الكتائب ، ونَصَبَ الردود ، وقام فصلى ركعتين ، ثم نادى في الناس ، وركب هو ومن معه ، وناهض أهل الشرك ، وما أحسبه فعل ذلك إلا فقهاً وعلماً وتأسياً بحديث النبي ﷺ حيث أمر بالقتال في تلك الساعة ، فإنَّ فيها تهبُّ الأرواح ، وتفتح أبواب الجنة ، وتستجاب الدعوات . فمنحهم الله أكتاف المشركين ، وانهزموا . وقتل عامتهم ، وفرَّق جمعهم . فلما أفلح عن القتال وانجلت الحرب ، نصب قناةً طويلةً ، فاثبتت في الأرض ، وأمر بالرُّؤوس ، فجُمِعت وطُرحت حوَّاليها حتى غابت القناة فيها ولم تظهر .

ثم ذكر في حوادث سنة مائتين أن الحكم أغزى وزيره عبد الكريم ابن مغيث إلى بلاد المشركين، فدخلها وتوسطها ، وأهلك معائشها ومرافقها، وحطم زروعها، وهدم منازلها وحصونها، حتى استوفى جميع قرى وادي أرون. فحشدت إليه الطاغية - دمرها الله - وإنجلبت النصرانية من كل مكان ، وأقبلت الجموع ، ونزلت بعدوة نهر أرون، وصار النهر حاجزاً بينهم وبين المسلمين. فلما أصبح نهض عبد الكريم بمن معه إلى مخاض الوادي ، ونهض أعداء الله إليهم، فقاتلوهم على كل مخاضة منها ، فجالدهم المسلمون عليها مجالدة الصابرين المحتسبين ، واقتحم أعداء الله النهر إليهم ، فاقتتلوا على مخاضته ، ثم حمل المسلمون عليهم حملة صادقة ، فأضغطوهم في المضائق ، وأدخلوهم على غير طريق ، فأخذتهم السيوف والطنن بالرماح والفرق في المياه ، فقتل من المشركين عددٌ عظيمٌ لا يُحصى كثرةً ، ومات أكثرهم بالتردي ودرس بعضهم بعضاً، وصاروا بعد المطاعنة والمجالدة بالرماح والسيوف إلى القذف بالحجارة ، وأكثروا الحُرَّاس بالمخاض ، ووعروها بالخشب، وحفروا الحفائر ، وخذقوا الخنادق . ونزلت الأمطار ، وكان قد فرغ ماكان لأعداء الله من المرافق ، وضاعت الحال أيضاً بالمسلمين ، فقفل عبد الكريم ظافراً لسبع خلون من ذي القعدة (١) .

في هذه الأخبار مثل من اهتمام أمير الأندلس الحكم بن هشام بأمر الجهاد وحماية دار الإسلام .

(١) البيان المغرب ٧٢/٢ - ٧٥ .

وفي خبر المرأة التي استغاثت بالحكم مثل من الغرب يشبه ماجرى في الشرق من تلك المرأة التي استغاثت بأمير المؤمنين المعتصم بالله العباسي ، ولقد اشتهر خبر المعتصم ولم يشتهر خبر الحكم لسهولة تداول تاريخ المشرق ، ولقد قام كل واحد من الأميرين بالجهاد وإغاثة المرأة التي استغاثت به .

وهكذا يتحفنا تاريخ قادة المسلمين بالروائع الجهادية في المشرق والمغرب ، حيث يرى أولئك القادة أن سعادتهم الروحية ليست في القلب في نعيم الدنيا ، وإنما هي في إغاثة الملهوفين وإنقاذ المكروبين وإعزاز الإسلام والمسلمين وإذلال الكفر والكافرين .

من مواقفه الإصلاحية :

من أخبار اهتمامه بالعدل ما ذكره ابن عذاري في ترجمته قال : كان الحكم - رحمه الله - شديد الخزم ، ماضي العزم ، ذا صولة تَتَقَى . وكان حسن التدبير في سلطانه ، وتولية أهل الفضل والعدل في رعيته ، وكان مبسوط اليد ، وكان له قاض كفاه بورعه وعلمه وزهده ، فمرض مرضاً شديداً ، فاغتم الحكم لمرضه ، فذكر بعض خاصته أنه أرق ليلة أرقاً شديداً ، وجعل يتململ على فراشه ، ف قيل له : أصلح الله الأمير ! ما الذي عرض ؟ فقال : وَيَحْكُم ! إني سمعت في هذه الليلة نادبةً ، وقاضينا مريضاً ، وماأراه إلا وقد قضى نحبه . فأين لي بمثله ، ومن يقوم بالرعية مقامه ؟ فمات القاضي في تلك الليلة وهو المصعب بن عمران قاضي أبيه . فولى بعده محمد بن بشير .

فكان أقصد الناس إلى حق ، وأبعدهم من جور ، وأنفذهم

بحكم . ورفع إليه رجل من أهل كورة جيان أن عاملا للحكم اغتصبه
جارية ، وصيرها إلى الحكم ، فوقعت من قلب الحكم كل موقع ،
فأثبت الرجل أمره عند القاضي ، وأتاه ببينة تشهد على معرفة ماتظلم
منه وبملكه للجارية وبمعرفتهم بها ، فأوجبت السنة أن تحضر الجارية ،
فاستأذن القاضي على الحكم ، فأذن له ، فلما دخل عليه ، قال له :
أيها الأمير ! إنه لا يتم عدل في العامة دون إقامة في الخاصة ! وحكى
له أمر الجارية ، وخيره بين إبرازها للبينة ليشهد على عينها أو عزله ،
فقال له الحكم : أولا أدعوك إلى خير من ذلك ! تبشاع الجارية من
صاحبها بأبلغ ما يطلب فيها . فقال القاضي : إن الشهود قد شهدوا
من كورة جيان ، وأتى الرجل يطلب الحق في مظانه ، فلما صار
ببابك ، تصرفه دون إنفاذ الحق له ، ولعل قائلًا يقول : باع مالا يملك
بيع مقهور ، فلما رأى عزمه على ذلك ، أمر بإخراج الجارية من
قصره ، فشهد الشهود عنده على عينها ، وقضى بها لصاحبها .

قال : وكان هذا القاضي محمد بن بشير ، إذا خرج للمسجد ،
وجلس للأحكام ، جلس في رداء معصفر ، وشعر مفرق ، فإذا طلب
ماعدنه وجد أفضل الناس وأورعهم .

وكان الحكم يقول : ماتحلى الخلفاء بمثل العدل ! (١) .

وهكذا يضرب الحكم مثالا من أروع الأمثلة على الاهتمام بتعيين
القضاة الأكفاء ويخضع لتطبيق الحق حينما يتوجه عليه ، ويشيد
بالخلفاء الذين يتحلون بالعدل ، وهذه أفعال وأقوال حميدة ، وخاصة

(١) البيان المغرب ٧٨/٢ - ٧٩ .

حينما تصدر ممن هم في أعلى قمة من المسئولية في بلادهم ، وهي إلى جانب كونها من المثل العالية التي تربي عليها هؤلاء الأمراء في ظل تطبيق الإسلام فإنها من التجارب السياسية التي توارثها الساسة وعرفوا أن بها صلاح الدول والشعوب .

وفي هذا الخبر موقف جليل للقاضي محمد بن بشير حيث أصر على الحكم بالعدل وإنفاذ الحق حتى على الحاكم ، وهو موقف يضاف إلى مواقف القضاة العالية التي أقرروا فيها العدالة وحفظوا للأمة الإسلامية أمنها وقوتها .

* * *

مواقف عبد الرحمن الناصر الجهادية

هو عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن ابن الحكم .

تولى إمرة الأندلس بعد موت جده عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن بن الحكم وذلك في عام ثلاثمائة (١) .

كان له غزوات كثيرة ضد النصارى ، قاد بعضها بنفسه وأسند قيادة بعضها لقادته ، وسأعرض نماذج من أبرز الغزوات التي تمت في عهده باختصار ، فمن ذلك :

غزوة مطونية :

وكانت في العام السادس والثلاثمائة حيث جهز أمير المؤمنين عبد الرحمن الناصر حملة بقيادة حاجبه بدر بن أحمد إلى دار الحرب ، وكان سبب ذلك أن النصارى تطاولوا على من بجوارهم من أهل الثغور من المسلمين لما انقطعت الغزوات الصيفية لبلادهم ، فخرج إليهم الجيش الإسلامي بعدما تجمعت أمداده من أنحاء البلاد في يوم الثلاثاء لخمس بقين من شهر محرم ، وقد تجمع الأعداء وحشدوا قواتهم ، فجرت بينهم وبين المسلمين معركة حامية انتصر فيها المسلمون وشفى الله صدورهم من أعدائهم ، وقتل من الأعداء عدد كبير وأسر منهم كذلك ، وكان الفتح يوم الخميس لثلاث خلون من ربيع الأول ويوم السبت لخمس خلون من ربيع الأول (٢) .

(١) الكامل في التاريخ ١٤٣/٦ .

(٢) البيان المغرب ١٧٢/٢ بتصرف .

غزوة بلدة :

وفي شهر ذي الحجة من عام ستة وثلاثمائة غزا الناصر لدين الله بنفسه مدينة بلدة ، وقد مر في طريقه بحصن دوش أمانتش فنازله وحاربه حتى افتتحه ، ثم نهض إلى مدينة بلدة فحاصرها يوم الثلاثاء لليلة بقيت من ذي الحجة ، فنزل من كان بها من المسلمين وذكروا أنهم كانوا مغلوبين على أمرهم فأمنهم الناصر وقاتل الكفار في المدينة حتى أظفره الله بهم فقتلوا عن آخرهم وملك المسلمون المدينة ، واستولوا على بعض الحصون المجاورة (١) .

غزوة مؤيش :

وفي سنة ثمان وثلاثمائة غزا أمير المؤمنين الناصر دار الحرب ، حيث خرج من قرطبة يوم السبت لثلاث عشرة ليلة خلت من شهر المحرم ، وبعد أربعة أيام ورد عليه كتاب فتح من عامله على مدينة الفرج يذكر فيه أن المشركين من أهل جليقية أتوهم في جمع كثير وأن الله تعالى منحهم أكتاف الكفرة فقتلوا وأسروا كثيرا منهم فاستبشر الناصر وتفاءل باسم المحلة التي كان فيها يوم أن ورد عليه كتاب النصر وهي مخاضة الفتح .

وقد استمر الناصر في مسيره نحو بلاد العدو وأظهر التوجه إلى الشفر الأقصى ثم عرج بالجيش إلى طريق آلبة والقلاع ، ثم بعث سعيد بن المنذر الوزير في سرية إلى حصن وخُشْمَة فأغذ السير حتى قرب من الحصن ، وسرح الخيل بمئة ويسرة ، والمشركون في سكون

(١) المرجع السابق ١٧٣/٢ بتصريف .

وغفلة ، إذ كان أميرهم قد كاتب أمير المؤمنين مكايذاً له بمحاولة إبعاده عن بلاده بمواعيد وعدّها من نفسه فأظهر أمير المؤمنين الناصر قبول ذلك منهم وأضمر الكيد بهم فغشيتهم الخيل المغيرة على حين غفلة فأصابوا مواشيهم ودوابهم فغنموها ورجعوا إلى العسكر سالمين ، ثم كان هجوم الجيش على ذلك الحصن ففرّ منه الكفار وأخلوه وذلك في صباح الجمعة لاثنتي عشرة ليلة بقيت من صفر .

ثم رحل أمير المؤمنين الناصر إلى حصن قاشترمورش وهو قاعدة الكفار هناك والموضع الذي كانوا يغيرون منه على المسلمين ، فلما رأهم أعداء الله أخلوا الحصن وخرجوا هاربين ، فدخله المسلمون وغنموا جميع مافيه ، وخربوا حصن القُبلة المجاور له .

ثم ارتحل الناصر بالمسلمين إلى مدينة قُلُونِيَّة وكانت من أمهات مدنهم فاستولوا على ماحولها ثم وجدوها خالية قد شرد عنها أهلها إلى الجبال المجاورة لهم ، فغنم المسلمون جميع ماأصابوا فيها .

ثم ارتحل الناصر لخمس بقين من صفر إلى ثغر تطيلة لنجدة المسلمين بها حيث كان زعيم النصارى « شَانْجَه » قد ضايقهم وأخافهم ، فسار بالمسلمين برفق لثلاثين يوماً لا يتصل سفرهم حتى وصل إلى تطيلة ، ثم قدّم الخيل مع محمد بن بُبّ عاملها إلى حصن قَلْهَرَّة الذي اتخذته شَانْجَه للإغارة على أهل تطيلة ، فلما قصدته الخيل أخلاه من كان فيه واستولى عليه المسلمون ، وبقي الناصر يومين حتى خربه وغنم مافيه واستولى على ماحوله .

ثم رحل بالجيش يوم الأحد لأربع خلون من ربيع الأول قاصداً

زعيم النصارى « شانجه » ، فخرج شانجه من حصن أرنيط بجيشه وتعرض لمقدمة جيش المسلمين فتبادر إليه الشجعان فانهزم الكفار وركبتهم الخيل ، فقتل من الكفار من قتل وفر بقيتهم إلى الجبال ، وحاز المسلمون كثيراً من رؤوس قتلى المشركين وتلقوا بها أمير المؤمنين الناصر ولم يكن له علم بالمعركة .

وورد الخبر على الناصر باجتماع أردون وشانجه واستمداد بعضهما ببعض طامعين في اعتراض مقدمة جيش المسلمين أو قطع ساقاتهم ، فأمر الناصر بتعبئة العساكر وضبط أطرافها ، ثم نهض بهم موغلا في بلاد الأعداء ، فأشرفوا من الصخور والجبال المنيعة وتعرضوا لأطراف جيش المسلمين ، وجعلوا يتصايحون ويولولون ليضعفوا من قلوب المسلمين ، فأمر الناصر بالنزول وإقامة الأبنية ، فلما نزل الأعداء من الجبال قاتلهم المسلمون فهزموهم وساروا خلفهم يقتلون من أدركوا منهم حتى حجز الظلام بينهم ، ولجأ عند الهزيمة أكثر من ألف من الأعداء إلى حصن مويش فأحاط به المسلمون من جميع جهاته وحاربوا من لجأ إليه حتى فتحوه وأخرجوا جميع من فيه وقتلوه ، واستولوا على ما فيه وما حوله (١) .

غزوة طرش :

وفي يوم السبت الثامن من محرم سنة تسع وثلاثمائة خرج أمير المؤمنين الناصر إلى « كورة رية » حتى نزل على حصن « طرش » وكان النصارى قد اجتمعوا فيه وتحصنوا به فحاصرهم المسلمون من

(١) البيان المغرب ١٧٥/٢ ، بتصرف .

جميع الجهات ونصبوا المنجنيقات على المرتفعات القريبة منه ، وكان الأعداء يبرزون في أول الأمر للقتال حتى مزقتهم الحرب وقل عددهم فأغلقوا الحصن على أنفسهم ، فاستمر المسلمون في حصارهم حتى أخذهم الجهد وأشفقوا من الهلاك فخطبوا أمير المؤمنين ضارعين إليه في تأمينهم على أن يسلموا الحصن ويخرجوا عنه ، فأجابهم إلى ذلك ، فدخله المسلمون وخرج منه النصارى ، ثم هُدم وألقيت أحجاره في النهر ، وبُني في موضع الكنيسة مسجد جامع ^(١) .

غزوة منت روبي :

وفي يوم السبت لعشر خلون من المحرم عام عشرة وثلاثمائة خرج أمير المؤمنين الناصر لغزو كورة البيرة ، وسار حتى نزل على حصن منت روبي ، وكان جبلا منيعا بعيد المرام ، وكان العجم قد لاذوا به ، وهو متوسط بين كورة البيرة وكورة جيان وعلى طريق بجانة ، فكان من سلك تلك السبيل من وارد أو صادر لا يسلم من عادية أهل ذلك الحصن ، وكانوا يسفكون الدماء ويسلبون الأموال ، فأقام عليهم الأمير الناصر خمسة وثلاثين يوما محاصرا حتى أباد كثيرا منهم ، ثم أبقى على الحصن من جنوده من استمر على محاصرتهم ، وتقدم إلى حصون قريبة في البيرة ورية فحارب أهلها وأبقى من قاداته من يحاصرونها ، حتى ضعف الأعداء ولم يبق لهم وجود يضر بالمسلمين ^(٢) .

(١) البيان المغرب ٢ / ١٨٠ ، بتصرف .

(١) المرجع السابق ٢ / ١٨٢ ، بتصرف .

غزوة بَنِي لُؤْلُؤَة :

وفي يوم السبت لأربع عشرة ليلة بقيت من المحرم سنة اثنتي عشرة وثلاثمائة خرج أمير المؤمنين الناصر لدين الله لغزو بني لُؤْلُؤَة ، وقد سار في عسكر كبير حتى دخل ثغر تطيلة فانضم إليه جنود من أهل ذلك الثغر ، ثم دخل بلاد المشركين يوم السبت لأربع خلون من ربيع الآخر فزول من أول بلادهم على حصن قلْهَرَة ، وكان زعيم النصاري « شانجه » قد أخلاه ، فأمر الناصر بهدمه ، ثم انتقل إلى بيطرة آلته ، وكانت هناك حصون مانعة فأخلاها الأعداء ، ولجأ بعضهم إلى غيران في شفير جرف على النهر، فلم يزل المسلمون يتعلقون إليهم فيها ويتسورون عليهم من أعاليها حتى فتح الله عليهم فقتلوا الرجال وسبوا الذراري وغنموا الأمتعة .

ثم انتقل الناصر بعد ذلك إلى عدد من حصون الأعداء فاستولى عليها، وعزم على الدخول إليهم في عقر دارهم فدخل في مواضع لم يدخلها المسلمون قبل ذلك حتى نزل بقرية بشْكُونْشَة التي ينسب إليها «شانجه» ، فجمع هذا القائد جنوده واستمد بالنصارى من كل مكان، فأمر الناصر بالتعبئة والاستعداد للحرب وأثقا بالله - عز وجل - ومتوكلا عليه ، فسلك بجيشه بين جبال شامخة ، ورجا أعداء الله اقتطاع بعض جيش المسلمين وهبطوا من الجبال فدارت بينهم وبين المسلمين مناوشة يسيرة، ثم نهض المسلمون إلى أعدائهم نهوض الأسود فعبروا النهر إليهم وصمموا بالحملة عليهم حتى اقتلعوهم عن موضعهم وهزموهم حتى اضطروهم إلى مرقى وعرفاقتحم المسلمون

عليهم وسهل الله لهم وعره فقتلوا جملة منهم وغنموا كثيرا من أموالهم ، وانصرفوا سالمين لم يصب منهم غير عدد قليل فازوا بالشهادة (١) .

وبعد فهذه أمثلة من الغزوات التي قام بها أمير المؤمنين عبدالرحمن الناصر لدين الله ، وهذه الأمثلة تبين لنا الجهود الكبيرة التي بذلها حكام الأندلس وقادتهم وجنودهم في سبيل الدفاع عن الإسلام والمسلمين وثبتت الدولة الإسلامية ، ومن هذه الأمثلة وغيرها ندرك أن ما اشتهر عن حكام الأندلس من أنهم كانوا يتقلبون في أنواع من النعيم ليس على إطلاقه ، بل إن ذلك الرخاء والنعيم لم يتوفر لهم إلا في ظل رايات الجهاد الخفاقة التي اندحر بها الأعداء واستسلموا لقوة المسلمين .



(١) المرجع السابق ١٨٥/٢ بتصرف .

مواقف المنصور محمد بن أبي عامر الجهادية والإصلاحية

مواقفه الجهادية :

بعد أن توفي الحكم بن عبد الرحمن في عام ستة وستين وثلاثمائة تولى بعده ابنه هشام وكان ابن اثنتي عشرة سنة وكان أمر دولته لوزير أبيه جعفر بن عثمان المصحفي ، وكان لابن أبي عامر دور قوي في السياسة في عهد الحكم بن عبد الرحمن فرقاه هشام إلى رتبة الوزارة ، ثم استأثر ابن أبي عامر بالحكم وتخلص من جعفر بن أبي عثمان ، ومن بعض القادة الذين ينافسونه في الحكم حتى انفرد أخيراً بشئون الحكم ، وكان يحكم باسم الأمير هشام (١) ، ومع ماوقع فيه من تدبير المؤامرات وقتل المنافسين فإن له مواقف جهادية كثيرة .

ومن أبرز غزواته غزوة « شنت ياقوب » وقد ذكر المؤرخ ابن عذاري هذه الغزوة بقوله :

وعند تناهي المنصور ابن أبي عامر في هذا الوقت على الاقتدار ، والنصر على الملوك الطاغية (دمرها الله) ، سما إلى مدينة شنت ياقوب بها من الأرض الكبيرة . وكانت كنيسة عندهم بمنزلة الكعبة عندنا ، فيها يحلفون وإليها يحجون من أقصى بلاد رومة وماوراءها ، ويزعمون أن القبر المزور فيها قبر ياقوب الحواربي أحد الإثني عشر رحمهم الله ، وكان أخصهم بعمى عليه السلام ، وهم يسمونه أخاه للزومة إياه . وقد زعم جماعة منهم أنه ابن يوسف النجار . وشنت ياقوب هي مدفن ياقوب ، فهم يسمونه أخا الرب (تعالى الله عن

(١) انظر الاموين بين الشرق والغرب / ٣٨٠ - ٣٨٨ .

قولهم علواً كبيراً) وياقوب بلسانهم يعقوب ، وكان أسقفاً بيت المقدس ، فجعل يستقري الأَرْضين داعياً لمن فيها ، فجاز إلى الأندلس حتى انتهى إلى هذه القاصية ، ثم عاد إلى أرض الشام ، فقتل بها ، وله مائة وعشرون سنة شمسية . فاحتمل أصحابه رتمه ، فدفنوها بهذه الكنيسة التي كانت أقصى أثره . ولم يطمع أحدٌ من ملوك الإسلام في قصدها ، ولا الوصول إليها ، لصعوبة مدخلها وخشونة مكانها ، وبعد شُقَّتْها .

فخرج المنصور إليها من قُرْطبة غازياً بالصائفة يوم السبت لست بقين من جمادى الآخرة سنة سبع وثمانين وثلاثمائة ، وهي غزوته الثامنة والأربعون .

ثم ذكر خطوات مسيره إلى أن قال : ثم نهض يريد شنت ياقوب ، فقطع أَرْضين متباعدة الأقطار ، وقطع بالعبور عدة أنهار كبار وخليجان يمدّها البحر الأخضر . ثم أفضى العسكر بعد ذلك إلى بسائط جليلة من بلاد فلطارش ومباسيطه والدير ومايتصل بها ، ثم أفضى إلى جبل شامخ شديد الوعر ، لامسلك فيه ولا طريق ، لم تهتد الأدلاء إلى سواه . فقدم المنصور الفَعْلَة بالحديد لتوسعة شعابه وتسهيل مسالكه ، فقطعه العسكر وعبروا بعده وادي منيه ، وانبسط المسلمون بعد ذلك في بسائط عريضة وأَرْضين أريضة ، وانتهت مَغِيرَتُهُمْ إلى دَيْر قَسْطَان وبسيط بلبنوط على البحر المحيط ، وفتحوا حصن شنت بلايه ، وغنموه ، وعبروا سِبَاخَهُ إلى جزيرة من البحر المحيط لجأ إليها خلقٌ عظيمٌ من أهل تلك النواحي ، فسبوا من فيها ممن لجأ إليها .

وانتهى العسكر إلى جبل مراسية المتصل من أكثر جهاته بالبحر المحيط، فتحللوا أقطاره ، واستخرجوا من كان فيه ، وحازوا غنائمه .

ثم أجاز المسلمون بعد هذا خليج لورقي في معبرين أرشد الأدلاء إليهما، ثم نهر إيله، ثم أفضوا إلى بسائط واسعة العمارة ، كثيرة الفائدة ، منها بسيط أونبة وقرجيطة ودير شنت برية. ثم انتهوا إلى خليج إيلياء ، وهو من مشاهد ياقوب أيضا صاحب القبر ، تلو مشهد قبره عن النصارى في الفضل ، يقصد نساكهم له من أقاصي بلادهم ومن بلاد القبط والنوبة وغيرها . فغادره المسلمون فارغًا .

وكان النزول بعده على مدينة شنت ياقوب البائسة، وذلك يوم الأربعاء لليلتين خلتا من شعبان ، فوجدها المسلمون خالية من أهلها، فحاز المسلمون غنائمها، وهدموا مصانعها وأسوارها وكنيستها، وعفوا آثارها . ووكل المنصور بقبر ياقوب من يحفظه ويدفع الأذى عنه .

إلى أن قال : وإنكفأ المنصور عن باب شنت ياقوب ، وقد بلغ غاية لم يبلغها مسلم قبله .

قال : ولم يجد المنصور بشنت ياقوب إلا شيخا من الرهبان جالسًا على القبر ، فسأله عن مقامه، فقال: أوانس يعقوب. فأمر المنصور بالكف عنه (١).

فهذه غزوة من غزوات المنصور ابن أبي عامر الكثيرة ، وقد خصصتها بالذكر لما فيها من المغامرات التي لم يسبق إليها في تلك البلاد، ولعل الذي دفعه إلى هذه المغامرات وتدمير ما وصل إليه من

(١) البيان المغرب ٢/ ٢٩٤ - ٢٩٧ باختصار .

عامر تلك البلاد الجبلية هو كون تلك المناطق الوعرة ملاذًا للمخربين من النصارى الذين يقومون بالهجوم على بلاد المسلمين ثم يلجئون إلى تلك البلاد التي لم يكونوا يتوقعون أن أحدًا من الغزاة سيصل إليها .

قال ابن عذارى : وفي سنة اثنتين وتسعين وثلاثمائة توفي المنصور ابن أبي عامر رحمه الله تعالى ، قال : وكانت عدة غزواته سبعا وخمسين غزوة باشرها كلها بنفسه ، وهو في أكثرها يشكو علة النقرس ، عفا الله تعالى عنا وعنه (١) .

من مواقفه الإصلاحية :

وقد ذكر المؤرخ ابن عذارى نبذة من إصلاحات ابن أبي عامر ومن ذلك : بنيان قنطرة على نهر قرطبة الأعظم . ابتداء المنصور بنيانها سنة سبع وثمانين وثلاثمائة ، وفرغ منها في النصف من سنة تسع وثمانين وثلاثمائة ، وانتهت النفقة عليها إلى مائة ألف دينار وأربعين ألف دينار، فعظمت بها المنفعة ، وصارت صدرًا في مناقبه الجليلية . وكانت قطعة أرض لشيخ من العامة ، ولم يكن للقنطرة عدولٌ عنها، فأمر المنصور أمناءه بإرضائه فيها ، فحضر الشيخ عندهم ، وأخذ حذره منهم ، فساوموه بالقطعة وعرفوه وجه الحاجة إليها ، وأن المنصور لا يريد إلا إنصافه فيها . فرماهم الشيخ بالغرض الأقصى عنده فيما ظنه : أن لا تخرج عنه بأقل من عشرة دنانير ذهبًا ، كانت عنده أقصى الأمانة، وشرطها صحاحًا . فاغتنم الأمناء غفلته ، ونقدوه الثمن ، وأشهدوا عليه ، ثم أخبروا المنصور بخبره ، فضحك من

(١) البيان المغرب ٣٠١/٢ .

جهالته، وأنف في غيبه ، وأمر أن يعطى عشرة أمثال ماسأل ، وتدفع له صحاحاً كما قال . فقبض الشيخ مائة دينار ذهباً ، فكاد أن يخرج عن عقله وأن يجنَّ عند قبضها من الفرح ، وجاء محتفلاً في شكر المنصور . وصارت قصته خبراً سائراً .

ومن ذلك أيضاً : بنيان قنطرة على نهر إستجة ، وهو نهر شليل ، فتجشم لها أعظم مؤنة . وسهّل الطُّرق الرعرة والشعاب الصعبة (١) .

فهذان مثالان من الإصلاحات العامة التي قام بها ، ومما يلفت النظر في الخبر الأول رحمته بذلك الشيخ وتورعه عن غيبه ، فهو لم يغتنم فرصة جهله بالأسعار كما فعل أصحابه ، بل أعطاه حقه وزيادة على ذلك ، فهذا يدل على تنزهه من الظلم وإن كان ذلك غير معلوم لمن سيقع عليه .

قال : ومن ذلك أنه خط بيده مصحفاً كان يحملهُ معه في أسفاره ، يدرس فيه ويتبرك به .

ومن قوة رجائه أنه اعتنى بجمع ماعلق بوجهه من الغبار في غزواته ومواطن جهاده ، فكان الخدم يأخذونه عنه بالمناديل في كل منزل من منازلهم ، حتى اجتمع له منه صرة ضخمة عهد بتصويره في حنوطه عند موته ، وكان يحملهُ حيث ماسار مع أكفانه ، توقعاً لحلول منيته ، وقد كان اتخذ الأكفان من أطيب مكسبه من الضيعة الموروثة عن أبيه وغزل بناته . وكان يسأل الله تعالى أن يتوفاه في طريق الجهاد ، فكان كذلك (٢) .

(١) البيان المغرب ٢/ ٢٨٨ .

(٢) المرجع السابق ٢/ ٢٨٨ .

وهذان الخبران يدلان على قوة دينه وعمق استحضاره للحياة
الآخرة وتعظيمه لكتاب الله تعالى والجهاد في سبيله .

قال : وكان عدل المنصور في الخاصة والعامة . واطّراحه
المهاودة ، وبسطه الحق على الأقرب فالأقرب من خاصته وحاشيته أمراً
مضروباً به المثل .

ومن عدله أنه وقف عليه رجلٌ من العامة يوماً بمجلسه فناده :
ياناصر الحق إن لي مظلمة عند ذلك الوصيف الذي على رأسك !
وأشار إلى الفتى صاحب الدركة . وكان له فضلٌ محل عند ابن أبي
عامر ، ثم قال : وقد دعوته إلى الحاكم ، فلم يأت ! فقال المنصور :
أوعبد الرحمن بن فطيس بهذه المنزلة من العجز والمهانة وكنا نظنه
أمضى من ذلك ؟ اذكر مظلمتك يا هذا ! فذكر الرجل معاملةً كانت
جارية بينهما قطعها من غير نصف ، فقال المنصور : ما أعظم بليتنا
بهذه الحاشية ! ثم نظر إلى الصقلبيّ ، وهو قد ذهل عقله ، فقال : ادفع
الدركة إلى فلان ، وانزل صاغراً ، وساو خصمك في مقامه حتى
يرفعك الحق أو يضعك ! ففعل ، ومثّل بين يديه ، ثم قال لصاحب
شرطته الخاص به : خذ بيد هذا الظالم الفاسق ، وقدمه مع خصمه
إلى صاحب المظالم لينفذ عليه حكمه بأغلظ ما يوجب الحق من سجن
أو غيره ! ففعل ذلك ، وعاد الرجل إليه شاكرًا ، فقال له المنصور :
قد انتصفت أنت فاذهب لسيلك ، وبقي انتصافي أنا ممن تهاون
بمنزلتني . فتناول الصقلبيّ بأنواع من المذلة ، وأبعده عن الخدمة .
ومن ذلك ، قصة فتاه الكبير المعروف بالميورقي مع التاجر

المغربي ، فإنهما تنازعا في خصومة توجهت فيها اليمين على الفتى المذكور ، وهو يومئذ أكبر خدام المنصور ، وإليه أمر داره وحرمه ، فدافع الحاكم ، وظن أن جاهه يمنع من إحلافه ، فصرخ التاجر بالمنصور في طريقه إلى الجامع متظلماً من الفتى ، فوكل به في الوقت من حمله إلى الحاكم ، فأنصفه منه ، وسخط عليه المنصور ، وقبض نعمته منه ونفاه .

ومن ذلك ، قصة محمد ، فصّاد المنصور وخادمه وأمينه على نفسه ، فإن المنصور احتاجه يوماً إلى الفصد ، وكان كثير التعهد له ، فأنفذ رسوله إلى محمد ، فألفاه الرسول محبوساً في سجن القاضي محمد بن زرب ، لحَيْفَ ظهر منه على امرأته . قدر أن سبيله من الخدمة يحميه من العقوبة . فلما عاد الرسول إلى المنصور بقصته أمر بإخراجه من السجن مع رقيب من رُقباء السجن ، يلزمه إلى أن يفرغ عن عمله ، ثم يعيده إلى محبسه . ففعل ذلك على مارسمه ، وذهب الفاصد إلى شكوى ماناله ، فقطع عليه المنصور ، وقال له : يا محمد ، إنه القاضي وهو في عدله ، ولو أخذني الحقُّ ما أظقتُ الامتناع منه ! عدُّ إلى محبسك أو اعترف بالحق فهو الذي يطلقك . فانكسر الحاجم ، وزال عنه ريحُ العناية . وبلغت قصته للقاضي ، فصالحه مع زوجته ، وراد القاضي شدةً في أحكامه (١) .

فهذه الأخبار الثلاثة تدل على عدله وإنصافه أهل الحق من ظالمهم وإن كانوا من المقربين إليه ، وفي الخبر الأول نراه يُنجي

(١) البيان المغرب ٢/ ٢٨٩ - ٢٩٠ .

باللائمة على ذلك القاضي الذي عجز عن استقدام المدعى عليه لكونه من المقرين للمنصور ، فهو يرى بذلك أن القاضي يجب عليه أن يكون قويا وأن لاتأخذه في الحق لومة لائم وأن لايفرق في الخصومة بين كبير أو صغير ، ثم إنه بعد أن أخذ المظلوم حقه نراه يعاقب ذلك الفتى الظالم عقوبة خاصة لكونه استغل قربه منه فامتنع من الحضور إلى مجلس القضاء .

قال : ومن ذلك قصة الجوهري التاجر ، وذلك أن رجلا جوهرياً من تجار المشرق قصد المنصور من مدينة عدن بجوهر كثير ، وأحجار نفيسة ، فأخذ المنصور من ذلك مااستحسنه ، ودفع إلى الجوهري التاجر صُرَّته ، وكانت قطعة يمانية . فأخذ التاجر في انصرافه طريق الرملة على شط النهر ، فلما توسطها واليوم قانظ وعرقه مُنْصَبٌ دعتة نفسه إلى التبرد في النهر ، فوضع ثيابه وتلك الصرة على الشط ، فمرت حداةٌ ، فاخطفت الصرة ، تحسبها لحما ، وصاعدت في الأفق بها ذاهبة ، فقطعت الأفق الذي تنظر إليه عين التاجر ، فقامت قيامته وعلم أنه لايقدر أن يستدفع ذلك بعدوى ولابحيلة ، فأسرَّ الحزن في نفسه ، ولحقته لأجل ذلك علةٌ اضطرب فيها . وحضر الدفع إلى التجار ، فحضر الرجل لذلك بنفسه ، فاستبان له مابه من المهانة والكآبة ، وفقد ماكان عنده من النشاط وشدة العارضة . فسأله المنصور عن شأنه ، فأعلمه بقصته ، فقال له : هلا أتيت إلينا بحدثان وقوع الأمر ؟ فكنا نستظهر على الحيلة ، فهل هدّيت إلى الناحية التي أخذ الطائر إليها ؟ قال : مرَّ مُشرقاً على سَمْت

هذه الجنان الذي يلي قصرك ! يعني الرملة ، فدعا المنصور شرطيه
 الخاص به فقال له : جئني بمشيخة أهل الرملة الساعة ، فمضى ،
 وجاء بهم سريعاً ، فأمرهم بالبحث عمن غير حال الإقلال منهم
 سريعاً ، وانتقل عن الإضاقة دون تدرج ، فتناظروا في ذلك ، ثم
 قالوا : يامولانا ! مانعلم إلا رجلاً من ضعفائنا كان يعمل هو وأولاده
 بأيديهم ، ويتناولون السقي بأقدامهم عجزاً عن شراء دابة ، فابتاع اليوم
 دابة واكتسى هو وولده كسوة متوسطة . فأمر بإحضاره من الغد ، وأمر
 التاجر بالغدو إلى الباب ، فحضر الرجل بعينه بين يدي المنصور ،
 فاستدناه والتاجر حاضر ، وقال له : سبب ضاع منا وسقط إليك
 ما فعلت به ؟ فقال : هو ذا يامولاي ؟ وضرب بيده إلى حجرة
 سراويله ، فأخرج الصرة بعينها ، فصاح التاجر طرباً وكاد يطير فرحاً ،
 فقال له المنصور : صف لي حديثها . قال : نعم ! بينا أنا أعمل في
 جناني تحت نخلة ، إذا سقطت أمامي ، فأخذتها ، وراقني منظرها ،
 فقلت إن الطائر اختلسها من قصرك لقرب الجوار ، فاحترزت بها ،
 ودعنتي فاقتي إلى أخذ عشرة مثاقيل عيوناً كانت معها مصرورة ،
 وقلت : أقل ما يكون في كرم مولاي أن يسمح لي بها . فأعجب
 المنصور ما كان منه ، وقال للتاجر : خذ صرتك ، وانظرها ،
 واصدقني عن عددها . ففعل وقال : وحق رأسك ، يامولاي ،
 ماضاع منها شيء سوى الدنانير التي ذكرها ، وقد وهبتها له . فقال له
 المنصور : نحن أولى بذلك منك ، ولانقص عليك فرحتك . ولولا
 جمعه بين الإقرار والإنكار لكان ثوابه موفوراً عليه . ثم أمر للتاجر
 بعشرة دنانير عوضاً من دنانيره وللجنان بعشرة دنانير ثواباً لتأنيه عن

إفساد ماوقع بيده، وقال : لو بدأنا بالاعتراف قبل البحث ، لأوسعناه جزاءً ! قال : فأخذ التاجر في الثناء على المنصور ، وقد عاوده نشاطه، وقال: والله لأبثن في الأقطار عظيم ملكك، ولأبين أنك تملك طير عملك كما تملك إنسها ، فلا تعتصم منك ولا تؤذي جارك! فضحك المنصور ، وقال: اقصد في قولك يغفر الله لك ! فعجب الناس من تلطف المنصور في أمره ، وحيلته في تفريج كربته (١).

فهذا مثال على دهاء المنصور ابن أبي عامر ودقة ملاحظته، وهذا التفوق في النظر في القضايا والبحث الدقيق في خفاياها وملاساتها إنما هو بالدرجة الأولى توفيق من الله تعالى لمن حملوا في أفكارهم هموم الأمة وأصبح إحقاق الحق وإبطال الباطل مطلبهم الكبير، فالذهن في هذه الحال يتفتق عن أنواع من مجالات الحلول التي يصل بها صاحبها إلى حل القضايا المشكلة ومعرفة الأمور المغيبة .



(١) البيان المغرب ٢/ ٢٨٨ - ٢٩٢ .

جهاد المرابطين في الأندلس

قبل أن أتحدث عن دور المرابطين في الجهاد في الأندلس أحب أن أعطي نبذة موجزة عن دولة المرابطين .

وأصل نشوء هذه الدولة التي حكمت بلاد المغرب والأندلس يعود إلى يحيى بن إبراهيم الجدالي الصنهاجي ، أمير جدالة ، فإنه قد شعر بما كان عليه قومه من الجهل بالدين وعدم وجود علماء يعلمونهم ويذكرونهم ، فلما رجع من الحج عام أربعين وأربعمائة مرَّ على القيروان واتصل هو وجماعته بالعالم المربي أبي عمران بن موسى بن عيسى الفاسي فطلبوا منه أن يرسل معهم عالماً يفقههم في أمور دينهم ، فأحالهم إلى تلميذه العابد المربي وجاج بن زللو اللمطي ، الذي بني له - بعد تخرجه من شيخه - رباطاً في الصحراء الكبرى في «نفيس» واجتمع حوله فيه تلامذته ، وكتب الشيخ إلى تلميذه هذا مع يحيى ابن إبراهيم « ابعث إلى بلدك من تثق بدينه وورعه وكثرة علمه وسياسته ليعلّمهم القرآن وشرائع الإسلام ويفقههم في الدين ، ولك وله في ذلك الثواب والأجر العظيم . والله لا يضيع أجر من أحسن عملاً » .

وقد وقع اختيار الشيخ « وجاج اللمطي » على تلميذه « عبد الله ابن ياسين الجزولي » وكان اختياراً موفقاً كما تبين فيما بعد ، حيث كان عبد الله هذا هو منشيء دعوة المرابطين وأستاذ زعمائهم ، وسار عبد الله بن ياسين نحو ديار الملتهمين من جدالة وملتونة مع يحيى بن إبراهيم ، وكان يحيى يقدمه لكل قبيلة يتوجه لدعوتها بقوله « هذا

عبد الله بن ياسين محيي السنة « وقد أثار إعجاب قبائل البربر بعلمه وأخلاقه حتى قال أحد شيوخهم : رأيتم هذا الجمل ! لابد أن يكون له في هذه الصحراء شأن عظيم .

وبدأ ابن ياسين دعوته بالوعظ والتعليم فأحبه الناس وأقبلوا عليه ، ثم بدأ بإصلاح المجتمع وإنكار المنكرات وتطبيق أحكام الإسلام على العامة والكبراء ، فقاومه بعض الأكابر الذين يرفضون من الإسلام ماخالف أهواءهم فهدموا داره ونهبوا مافيها .

عند ذلك فكر هو وصاحبه يحيى بن إبراهيم في إنشاء رباط في جزيرة منعزلة عند مصب نهر السنغال في المحيط الأطلسي ، وتوافد التلاميذ على ذلك الرباط يتعلمون العلم الديني ويتلقون التربية الأخلاقية والجهادية ، وقد توسع ذلك الرباط حتى بلغ عدد جماعته أكثر من ثلاثة آلاف ^(١) ومن هؤلاء التلاميذ تكونت فرق المجاهدين التي أنشأت دولة المرابطين بعد جهاد طويل قاده منشئ هذه الدعوة عبد الله ابن ياسين ، بمؤازرة صاحبه يحيى بن إبراهيم الجدالي ، ثم بقيادة يحيى بن عمر اللمتوني ، ثم أخيه أبي بكر بن عمر ، إلى أن آل الأمر إلى يوسف بن تاشفين الذي وسع الجهاد وأقام دولة المرابطين الواسعة .

سبب جهاد المرابطين في الأندلس :

بعد أن سقطت إمارة طليطلة وأصبحت كل إمارات الأندلس مهددة بالسقوط في أيدي النصارى اهتم علماء الأندلس ووجهائها

(١) البيان المغرب لابن عذاري ٧/٤ - ٢٤ ، أمير المسلمين ابن تاشفين لإبراهيم الجمل / ٣٧ - ٤٩ ، التاريخ الأندلسي / ٤١٩ - ٤٢٠ .

بمسيل إنقاذ وضعهم المتدهور ، فاتَّجَهَتْ أنظارهم إلى طلب النجدة من أمير المرابطين في المغرب ، ووافقهم بعض حكامهم على ذلك ، وعلى رأسهم المعتمد بن عباد ، فأرسلوا رسلهم إلى الأمير يوسف بن تاشفين ليسرع إلى نجدهم (١) .

معركة الزَّلَّاقَة :

وبعد أن وصلت رسل الأندلس إلى ابن تاشفين يطلبون لمجده سارع إلى ذلك بعد استشارة أهل الرأي ، وقد عبرت الجيوش المرابطية إلى الأندلس على دفعات حتى تكاملت ، وكان عدد فرسان المرابطين سبعة آلاف ومعهم عدد كثير من الرِّجَالَة ، وذلك في شهر ربيع الأول من عام تسعة وسبعين وأربعمائة .

ويُذكر أنه في حال عبور الأمير يوسف بن تاشفين البحر هبت ريح عاصف أثارت أمواجًا عالية ، فرفع الأمير يوسف يديه إلى السماء يدعو الله عز وجل « اللهم إن كنت تعلم أن في جَوَازِنَا هذا خَيْرَةٌ للمسلمين فسهِّل علينا جواز هذا البحر ، وإن كان غير ذلك فصعِّبه حتى لا أجوره ، فاستجاب الله دعاءه فسهِّل له عبور ذلك البحر (٢) .

وصل ابن تاشفين إلى الأندلس بجيشه ، وسارع أمراء الطوائف إلى الاشتراك بقواتهم ، وفرح أهل الأندلس بقدوم الأمير ابن تاشفين فرحًا عظيمًا ، وسار المرابطون إلى إمارة بطليوس وعسكروا في سهل « الزَّلَّاقَة » ، وتوافدت عليهم جيوش الأندلس .

(١) نفع الطيب ٨٧/٦ .

(٢) التاريخ الأندلسي / ٤٠٣ عن دول الطوائف ٣١٩ ، ٤٤٧ .

وكان أمير النصارى « الفونسو أذفنوش » يحاصر سرقسطة في طريقه إلى الاستيلاء على بقية الأندلس ، فلما علم بقدوم جيش المرابطين فكَّ الحصار وبدأ يستعد وكاتب أمراء النصارى فأجابه عدد منهم واجتمعت عنده جيوش كثيرة ، فسار بجيشه مزهواً بتفوقه في العدد والعدد ، ونظر إلى جيشه فقال : بهؤلاء أقاتل الجن والإنس وملائكة السماء .

وبعد أن اجتمع أمراء الطوائف ضموا جيوشهم وأسندوا قيادة جيشهم إلى المعتمد بن عباد ، وصاروا في مقدمة الجيش ومن خلفهم جيش المرابطين .

وقبل المعركة جرت مراسلات بين الطرفين ، فقد أرسل ابن تاشفين - عملاً بالسنة - إلى الفونسو يعرض عليه الدخول في الإسلام أو الجزية أو الحرب ، ومما جاء في هذه الرسالة « وَبَلَّغْنَا يَا أَذْفَنُوشُ أَنَّكَ دَعَوْتَ إِلَى الْاجْتِمَاعِ بِكَ ، وَتَمَنَيْتَ أَنْ تَكُونَ لَكَ فُلُكٌ تَعْبُرُ الْبَحْرَ عَلَيْهَا إِلَيْنَا ، فَقَدْ جَزَنَاهُ إِلَيْكَ ، وَجَمَعَ اللَّهُ تَعَالَى فِي هَذِهِ الْعَرِصَةِ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ ، وَسَتَرَى عَاقِبَةَ دَعَاكَ ﴿ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴾ ^(١) . فغضب الفونسو لهذه الرسالة وردَّ بكتاب عنيف مملوء بالوعيد ، وقد اكتفى ابن تاشفين في الرد عليه بأن كتب على ظهر الرسالة « الذي يكون ستره » .

وقد نظم أمير المسلمين يوسف بن تاشفين جيشه فجعل القوات الأندلسية تحت قيادة المعتمد بن عباد وجعلهم في المقدمة ، وجعل منهم

(١) سورة الرعد / ١٤ .

في الميمنة قوة بقيادة ابن الأفطس ، وجعل في الميسرة أهل شرقي الأندلس ، وجعل قوات المرابطين في الخلف ، وأفرد منهم قوتين من الفرسان جعلهما جيش احتياط إحداهما بقيادة داود بن عائشة والأخرى بقيادة أبي بكر سير بن أبي بكر وهما من قادته الكبار .

ولما تقابل الجيشان كتب قائد العدو إلى المسلمين يوم الخميس الحادي عشر من شهر رجب يخبرهم أن المعركة ستكون يوم الإثنين ، وكان ذلك منه خداعا ليباغتهم يوم الجمعة .

وقد أدرك المسلمون تلك الخديعة ، وأكد ذلك ماظهر في جيش العدو من الاستعداد للقتال ، فأخذ المسلمون حذرهم ، وزاد الأمر تأكيداً أن أحد العلماء الصالحين وهو أبو العباس أحمد بن رُمَيْلة القرطبي أخبر برؤيا صالحة ، وهي أنه رأى النبي ﷺ ليلة الجمعة فبشره بالفتح والشهادة له في صبيحة الغد ، فانتبه مسروراً وتأهب ودعا ودهن رأسه وتطيب ، وكان في جيش ابن عباد ، فوصله خبر الرؤيا فبعث إلى ابن تاشفين وأخبره ، فكان ذلك تحقيقاً لخديعة الفونسو المذكورة .

فلما كان صباح الجمعة الثاني عشر من شهر رجب من عام تسعة وسبعين وأربعمائة زحف الفونسو بجيشه على المسلمين . وقد وجه بقواته إلى مقدمة جيش المسلمين ، وماكاد الأعداء يوجهون ضرباتهم إلى جيش الأندلس حتى ظهر الفشل والخلل فيهم فانهمز كثير منهم وثبت قائدهم ابن عباد في قلة معه .

وكان قائد المسلمين يوسف بن تاشفين يلاحظ مايجري بدقة فوجه

الفرقة الاحتياطية التي كانت بقيادة ابن عائشة لنجدة المعتمد ابن عباد، ثم لما احتدمت المعركة وكثف الأعداء من هجومهم وجه ابن تاشفين الفرقة الاحتياطية الأخرى بقيادة البطل المشهور سير بن أبي بكر، وقد استطاع ابن أبي بكر أن يوقف قوات القشتاليين التي يقودها هانيس، ودارت بين القوتين معركة عنيفة انضم إليها قائد النصارى الفونسو.

وتراجع جيش الأندلسيين فاشتغل النصارى بقتالهم ومطاردتهم، وكانت الفرصة الذهبية التي خطط لها ابن تاشفين حيث كان يلتمس نقاط الضعف في العدو لينزل إلى الميدان بهجوم صاعق، فاغتنم فرصة انشغال الأعداء بمطاردة الجيش الأندلسي وبعدهم عن معسكرهم فداهمهم من الخلف وأباد الحامية التي حول معسكرهم وأضرم فيه النيران، ثم نزل إلى الميدان وهجم بجيشه على مؤخرة الأعداء وصار المسلمون يحصدونهم بسيفهم.

ولما علم قائد العدو « الفونسو » بما حل بمعسكره رجع بقواته فاصطدم بالمرابطين ودارت بينهم معركة حامية انهزم فيها النصارى.

ثم أراد ابن تاشفين أن يقضي على بقية النصارى فجمع جيشه في صفوف متراصة وهجم بهم على العدو، واستطاع أحد جنود الفرقة السودانية أن يصل إلى الفونسو وأن يقتل فرسه وطعنه في فخذه إلا أنه نجا من تلك الطعنة واستمر القتال إلى غروب الشمس، وفر بقية جيش النصارى، وتسلسل الفونسو في الظلام مع خمسمائة فارس مات منهم أربعمائة في الطريق ووصل الفونسو إلى طليطلة ومعه مائة فارس^(١).

(١) نفع الطيب ٨٦/٦ - ١٠٣، الكامل في التاريخ ٨/١٤١، أمير المسلمين يوسف بن=

وهكذا كانت معركة الزلاقة معركة حاسمة ارتفع بعدها شأن المسلمين وثبت وجودهم في الأندلس وانخفض شأن النصارى وانحازوا إلى معاقلهم .

لقد كان الفونسو عازما على إنهاء وجود المسلمين في الأندلس ، وساعده على ذلك تحالف أمراء النصارى في أوربا معه وتفرق المسلمين إلى دويلات صغيرة يعيش أمراؤها في تناحر وعداء مستمر ، وكانوا من ذلتهم يدفعون الجزية للنصارى ، وبلغت الخيانة ببعضهم إلى أن طلبوا المساعدة من أمير قشتالة الفونسو على قتال إخوانهم من أمراء المسلمين ، فاغتنم هذا الأمير الفرصة وبدأ يستولي على بلاد الأندلس إلى أن قبض الله له الأمير البطل القائد المحنك يوسف بن تاشفين ففضى على جيشه وحطم آماله .

ولقد كان عجيبياً أن يخوض ابن تاشفين هذه المعركة الهائلة وهو في الثمانين من عمره، ومع هذا العمر الكبير فإنه قاد جيشه وشارك في القتال وهو على ظهر فرسه، وهذا من الدلائل على صلاحه وعلو همته .

لقد كان من نتائج هذه المعركة الفاصلة أن الإسلام بقي في الأندلس مئات السنين بعد أن اتفق الأعداء من النصارى على القضاء على وجود المسلمين هناك .

عاد الأمير يوسف بن تاشفين إلى المغرب في شهر شعبان من عام

= تاشفين لإبراهيم الجمل / ١١٦ - ١٣٤ ، التاريخ الأندلسي للدكتور عبد الرحمن الحجي / ٤٠٣ - ٤٠٩ .

تسعة وسبعين وأربعمائة، وترك جزءاً من جيشه في الأندلس بقيادة سير ابن أبي بكر ليجاهد النصارى، وقد شارك معه في الجهاد أمير بطليوس، أما بقية أمراء الأندلس فإنهم قد تركوا جهاد النصارى ورجعوا إلى منازعاتهم، ولم يستفيدوا من الدروس الأليمة التي مروا بها يوم أن كانوا قاب قوسين أو أدنى من أن يتحولوا إلى عبيد للنصارى.

حصار حصن لبيط :

اشتد ضغط النصارى على المسلمين في الأندلس وتكررت هجماتهم خاصة على الجهة الشرقية التي كان المعتمد بن عباد يسيطر عليها، وكانوا يخرجون إلى المسلمين من حصن « لبيط » المنيع وكان النصارى قد أحكموا بناءه ووضعوا فيه آلافاً من المقاتلين ، ولما أيس ابن عباد من الانتصار عليهم وخشي من وقوع بلاده تحت أيديهم سار إلى أمير المسلمين يوسف بن تاشفين وشرح له الضرر الواقع على المسلمين من حصن لبيط وطلب منه نجاتهم ، فوعده ابن تاشفين بالقدوم إلى الأندلس بجيشه .

وبعد أن أكمل الأمير يوسف بن تاشفين استعداداته سار وعبر مضيق جبل طارق فلتقاه المعتمد في الجزيرة الخضراء بالمُؤن، وكتب ابن تاشفين إلى ملوك الطوائف يستنفرهم إلى الجهاد وحدد مكان اللقاء حصن لبيط ، وقد حاصره المسلمون حصاراً شديداً إلى أن وافق أمير قشتالة الفونسو على إخلائه فأخلاه ثم هدمه ، وتخلص المسلمون

بذلك من بلاء كبير ، وعاد ابن تاشفين إلى المغرب ، ولكن الأندلس عادت إلى أسوأ من حالها الأولى (١) .

عودة المرابطين إلى الجهاد :

هذا وقد ساءت أحوال ملوك الطوائف في الأندلس ، وجدد بعضهم تحالفه مع النصارى ضد إخوانه المسلمين ، فكثرت مناشدة المسلمين للأمير يوسف بن تاشفين بتخليص الأندلس من هؤلاء الملوك ، وأفتاه العلماء كآبي حامد الغزالي وأبي بكر الطرطوشي بضرورة توحيد الأندلس تحت قيادته ليتمكن من إجلاء الصليبيين منها ، وقد استجاب لتلك النداءات وعمل بفتوى العلماء فجهز جيشاً وعبر إلى الأندلس في أوائل سنة ثلاث وثمانين وأربعمائة وقام ببعض الأعمال الجهادية ، ثم عاد إلى المغرب وترك عدداً من قادته ليكملوا الجهاد في توحيد الأندلس ومقاومة النصارى ، وقد جرت معركة كبيرة بين المرابطين بقيادة سير بن أبي بكر والنصارى بقيادة البرهانش كان النصر فيها خليف المسلمين وذلك في عام أربعة وثمانين وأربعمائة .

وفي عام واحد وتسعين وأربعمائة التقى المرابطون بقيادة محمد بن الحاج بالنصارى القشتاليين بقيادة الفونسو قرب كنشرة من أعمال طليطلة وقد انهزم النصارى وتكبدوا خسائر كبيرة .

واستمر المرابطون في جهادهم إلى أن توفي أمير المسلمين يوسف ابن تاشفين في أول محرم من عام خمسماية بعد عمر يقارب المائة سنة قضى أكثر من نصفها في الجهاد والإصلاح رحمه الله رحمة واسعة .

(١) التاريخ الأندلسي / ٤٢١ - ٤٢٢ ، أمير المسلمين يوسف بن تاشفين ١٣٥ - ١٤٢ .

وقد خلفه في حكم دولة المرابطين ابنه علي الذي سار على سيرة أبيه في مواصلة الجهاد في سبيل الله تعالى .

معركة أقليش :

جرت هذه المعركة بعدما تولى الأمير علي بن يوسف بن تاشفين الحكم في أوائل عام واحد وخمسمائة، وقد كتب الأمير علي إلى أخيه تميم باستئناف الجهاد، فتوجه المرابطون إلى مدينة أقليش الواقعة شرق مدينة طليطلة ففتحوها، وتركها جيش النصارى القشتاليين وتحصنوا بقلعة أقليش المنيعة، وقد أمدَّ أمير قشتالة الفونسو السادس تلك الحامية بعشرة آلاف فارس، بقيادة ولي عهده ابنه الوحيد شائع البالغ إحدى عشرة سنة، مع قائده الكبير البرهانش وقادة آخرين، وكان عدد الجيش القشتالي يفوق كثيراً عدد الجيش الإسلامي، وقد جرت هذه الواقعة في السادس عشر من شوال عام واحد وخمسمائة، وقد انتصر فيها المسلمون انتصاراً رائعاً أعاد ذكرى معركة الزلاقة، وانهزم القشتاليون هزيمة ساحقة قُتل فيها ابن ملكهم شائع المذكور^(١).

معركة إفراغة :

بعد انتصار المرابطين في معركة أقليش جرت لهم أعمال جهادية انتصروا في أكثرها وأصيبوا في بعضها .

ومن أشهر المعارك التي خاضوها معركة إفراغة ، في رمضان سنة ثمان وعشرين وخمسمائة ، وهذه المعركة تعتبر من المعارك المهمة ،

(١) التاريخ الأندلسي / ٤٢٢ - ٤٢٥ عن البيان المغرب ، وتاريخ الأندلس ، ونظم الجمان ومصادر أخرى .

وكان الجيش الإسلامي مكوناً من المرابطين والأندلسيين بقيادة الأمير أبي زكريا يحيى بن غانية والي بلنسية ومرسية ، ويعتبر من أعظم قادة المرابطين في ذلك العهد ، وكان جيش المسلمين أقلّ من جيش النصارى الذي يقوده أدفنوش بن رُدْمِير ، وقد انتصر المسلمون في هذه المعركة بعد قتال عنيف (١) .

وهكذا قدم المرابطون للمسلمين صفحات جهادية بيضاء في المغرب والأندلس .



(١) عصر المرابطين الموحدين في المغرب والأندلس لمحمد عبد الله عنان / ١٢٠-١٢٦ ، التاريخ الأندلسي / ٤٢٦ - ٤٣٧ ، عن نظم الجمان ، والروض المعطار، والبيان المغرب وغيرها .

مواقف وعبد

فى

جهاد المسلمين فى المشرق

فتوح بلاد ما وراء النهر

فى

عهد الأمويين

١ - المحاولات الأولى للفتح -

كانت الفتوحات الإسلامية قد توقفت في آخر عهد عثمان رضي الله عنه لما اشتغل المسلمون بالفتن الداخلية ، واقتصر الأمر تقريباً على محاولة إخضاع البلاد التي تنتقض على المسلمين ، ولم يعد نشاط الفتوح بشكل ظاهر إلا في خلافة الوليد بن عبد الملك حينما استقرت الأمور الداخلية تماماً .

ولقد أتاح هذا الانقطاع الطويل نسيباً فرصة ترسيخ الإسلام في البلاد التي فتحها المسلمون وتنشئة الأجيال فيها على هذا الدين حتى أصبح الغزو ينطلق من خراسان وسجستان لغزو بلاد ماوراء النهر وكأنه ينطلق من الكوفة والبصرة في عهد عمر رضي الله عنه .

جهاد الحكم بن عمرو الغفاري :

حينما تولى زياد بن عبيد على البصرة من قبل أمير المؤمنين معاوية رضي الله عنه عام خمسة وأربعين ولّى عددًا من الأمراء على خراسان ، ثم ولّى الحكم بن عمرو الغفاري رضي الله عنه ، وفي ذلك يقول البلاذري : ثم ولّى زياد الحكم بن عمرو الغفاري ، وكان عفيفاً وله صحبة ، وإنما قال - يعني زياد - لحاجبه فيل : ايتني بالحكم ، وهو يريد الحكم بن أبي العاص الثقفي ، وكانت أم عبد الله بنت عثمان بن أبي العاص عنده ، فأثاه بالحكم بن عمرو ، فلما رآه تبرك به ، وقال : رجل صالح من أصحاب رسول الله ﷺ ، فولاه خراسان ، فمات بها في سنة خمس وخمسين ، وكان الحكم أول من صلى من وراء النهر .

قال : وحدثني أبو عبد الرحمن الجعفي قال : سمعت عبد الله ابن المبارك يقول لرجل من أهل الصغانيان كان يطلب معنا الحديث : أتدري من فتح بلادك ؟ قال : لا ، قال : فتحها الحكم بن عمرو الغفاري (١) .

رحيل المسلمين إلى خراسان :

ذكر البلاذري أن زياداً ولّى الربيع بن زياد الحارثي سنة إحدى وخمسين خراسان ، وحول معه من أهل المصرين (٢) زهاء خمسين ألفاً بعيالاتهم ، وكان فيهم بُريدة بن الحُصيب الأسلمي أبو عبد الله رضي الله عنه ، ويمروء توفى أيام يزيد بن معاوية ، وكان فيهم أيضاً أبو بررة الأسلمي عبد الله بن نضلة رضي الله عنه ، وبها مات ، وأسكنهم دون النهر (٣) .

وهذا الخبر يعطينا صورة من الجهود الدعوية التي بذلها الصحابة رضي الله عنهم والتابعون في ذلك العهد ، فإن رحيل خمسين ألفاً بأسرهم إلى خراسان سيكون له أثر في دعوة أهل تلك البلاد وبلاد ما وراء النهر ، وذلك بالقدوة الحسنة أولاً ، ثم بالوعظ والتذكير .

جهاد عبيد الله بن زياد :

ذكر الإمام الطبري في حوادث سنة أربع وخمسين للهجرة أن معاوية رضي الله عنه ولّى على خراسان عبيد الله بن زياد ، وأنه لما

(١) فتوح البلدان (٥٧٦ - ٥٧٧ .

(٢) يعني الكوفة والبصرة .

(٣) فتوح البلدان / ٥٧٧ .

قدم على خراسان قطع النهر إلى جبال بخارى على الإبل ، فكان هو أول من قطع إليهم جبال بخارى في جند ففتح راميثن ونصف بيكند -وهما من بخارى - فمن ثم أصاب البخارية - يعني السبي الذين سباهم من بخارى - .

وذكر في رواية أخرى عن عبادة بن محصن قال: مارأيت أحداً أشد بأساً من عبيد الله بن زياد ، لَقِينَا رَحْفٌ من الترك بخراسان فرأيته يقاتل فيحمل عليهم فيطعن فيهم ويغيب عنا ، ثم يرفع رايته تقطر دماً (١) .

وهذا موقف يُذكر لعبيد الله بن زياد حيث يقاتل هذا القتال الشديد وهو أمير القوم ، كما أنه أول قائد مسلم وصل إلى منطقة بخارى .

وذكر البلاذري أن معاوية رضي الله عنه استعمل عبيد الله بن زياد على خراسان وهو ابن خمس وعشرين سنة فقطع النهر في أربعة وعشرين ألفاً ، فأتى بيكند ، وكانت خاتون (٢) بمدينة بخارى فأرسلت إلى الترك تستمدهم فجاءها منهم دهم (٣) فلقبهم المسلمون فهزموهم ، وحووا عسكرهم ، فبعثت إليهم خاتون تطلب الصلح والأمان، فصالحها على ألف ألف ، ودخل المدينة وفتح راميثن (٤)

(١) تاريخ الطبري ٢٩٧/٥ - ٢٩٨ .

(٢) هي أميرة بخارى في ذلك الزمن .

(٣) أي عدد كبير .

(٤) في فتوح البلدان رامدين وفي تاريخ الطبري راميثن وقد ذكرها ياقوت في معجم

البلدان باسم راميثن وذكر أنها قرية ببخارى - ١٨/٣ - .

ويكند وبينهما فرسخان ، وراميشين تنسب إلى بيكند (١) .

ويقول الحافظ ابن كثير في بيان جهاد عبيد الله بن زياد : ولقي الترك هناك فقاتلهم قتالا شديداً وهزمهم هزيمة فظيعة ، بحيث إن المسلمين أعجلوا امرأة الملك أن تلبس خفيها ، فلبست واحدة وتركت أخرى ، فأخذها المسلمون وقوموا جواهرها بمائتي ألف درهم ، وغنموا مع ذلك غنائم كثيرة (٢) .

وفي هذا الخبر إشارة إلى لون من ألوان الترف الذي كان يعيش فيه أمراء الكفار ، حيث كانت خفا تلك الأسيرة تبلغ قيمتهما أربعمائة ألف درهم ، وهذا من مؤشرات زوال السلطة حينما يكون الأمر الذي يهتم به الأمراء ويتنافسون عليه هو مظاهر الحياة الدنيا .

جهاد سعيد بن عثمان بن عفان :

ولّى معاوية رضي الله عنه سعيد بن عثمان بن عفان رحمه الله ورضي عن أبيه خراسان وذلك في عام ستة وخمسين ، فعبر النهر ، فلما بلغ خاتون أميرة بخارى عبوره النهر حملت إليه الصلح ، وأقبل أهل السغد والترك وغيرهم إلى سعيد في مائة وعشرين ألفاً ، فالتقوا ببخارى ، وقد ندمت خاتون على أدائها الإتاوة ونكثت العهد ، فلما التقوا انسحب بعض الأعداء من المعركة وانهزم بقيتهم ، فلما رأت خاتون ذلك أعطت سعيداً الرهن وأعادت الصلح .

ودخل سعيد مدينة بخارى ، ثم غزا مدينة سمرقند ، فأعانتته

(١) فتوح البلدان / ٥٧٧ .

(٢) البداية والنهاية ٦٩/٨ .

خاتون بأهل بخارى ، فنزل على باب سمرقند ، وحلف أن لا يبرح أو يفتحها ، فقاتل أهلها ثلاثة أيام ، ثم لزم العدو المدينة وقد فشلت فيهم الجراح ، وأتاه رجل فدلّهُ على قصر فيه أبناء ملوكهم وعظمائهم ، فسار إليهم وحصرهم ، فلما خاف أهل المدينة أن يفتح القصر عنوة ويقتل من فيه طلبوا الصلح فصالحهم على سبعمائة ألف درهم ، وعلى أن يعطوه رهنا من أبناء عظمائهم ، وعلى أن يدخل المدينة متى شاء ويخرج من الباب الآخر ، فأعطوه خمسة عشر من أبناء ملوكهم ، ثم انصرف فلما كان بترمذ حملت إليه خاتون الصلح ، وأقام على ترمذ حتى فتحها (١) .

جهاد عبيد الله بن أبي بكرة :

ومن أخبار الجهاد في تلك البلاد ما أخرجه الإمام الطبري عن أبي المخارق الراسبي قال : لما ولّى الحجاج المهلب على خراسان وعبيد الله ابن أبي بكرة على سجستان وذلك في سنة ثمان وسبعين فمكث عبيد الله بن أبي بكرة بقية سنته ، ثم إنه غزا « رتييل » يعني أحد ملوك بلاد ما وراء النهر - وقد كان مصالحا ، وقد كانت العرب تأخذ منه قبل ذلك خراجا وربما امتنع فلم يفعل ، فبعث الحجاج إلى عبيد الله ابن أبي بكرة : أن ناجزه بمن معك من المسلمين ، فلا ترجع حتى تستبيح أرضه ، وتهدم قلاعه ، وتقتل مقاتلته وتسبي ذريته ، فخرج بمن معه من المسلمين من أهل الكوفة وأهل البصرة ، وهو أمير الجماعة ، فمضى حتى وغل في بلاد رتييل ، فأصاب من البقر والغنم

(١) فتح البلدان / ٥٧٨ - ٥٧٩ ، وانظر البداية والنهاية ٨ / ٨٢ .

والأموال ماشاء ، وهدم قلاعاً وحصونا وغلب على أرضٍ من أرضهم كثيرة ، وأصحاب رتبيل من الترك يخلون لهم عن أرضٍ بعد أرضٍ ، حتى أمعنوا في بلادهم ، ودنوا من مدينتهم وكانوا منها ثمانية عشر فرسخاً فأخذوا على المسلمين العقاب^(١) والشعاب ، وخلّوهم والرساتيق فسقط في أيدي المسلمين ، وظنوا أن قد هلكوا ، فبعث ابن أبي بكرة إلى شريح بن هاني : إني مصالح القوم على أن أعطيهم مالاً ويخلّوا بيني وبين الخروج ، فأرسل إليهم فصالحهم على سبعمئة ألف درهم ، فلقبه شريح فقال : إنك لاتصالح على شيء إلا حسبه السلطان عليكم في أعطياتكم ، قال : لو منعنا العطاء ماحيينا كان أهون علينا من هلاكنا ، قال شريح : والله لقد بلغتُ سنّاً ، وقد هلكْتُ لدائمي ، ماتأتي عليّ ساعة من ليل أو نهار فأظنّها تمضي حتى أموت ، وقال : يا أهل الإسلام تعاونوا على عدوكم . . إلى أن قال : يا أهل الإسلام من أراد منكم الشهادة فإليّ ، فاتبعه ناس من المتطوعة غير كثير وفرسان الناس وأهل الحفاظ ، فقاتلوا حتى أصيبوا إلا قليلاً فجعل شريح يرتجز يومئذ ويقول :

أصجت ذا بثٍّ أقاسي الكبراً قد عشت بين المشركين أعصراً
ثُمَّ أدركت النبيّ المنذراً وبعده صديقّه وعمراً
ويوم مهران ويوم تُستراً والجمع في صِفّينهم والنّهراً
وياجميرات مع المشقّراً هيهات ما أطول هذا عمراً
فقاتل حتى قتل في ناس من أصحابه (٢) .

(١) بكسر العين جمع عقبة وهي الطريق الجبلي .

(٢) تاريخ الطبري ٣٢٢/٦ ، البداية والنهاية ٢٩/٩ .

وهذه الأبيات تدلنا على أن شريح بن هانئ رضي الله عنه قد عُمِّرَ طويلاً فقد أدرك الجاهلية ثم صحب النبي ﷺ وشارك في فتوح فارس الأولى ، ثم كان مع علي بن أبي طالب رضي الله عنه في الحروب الداخلية فشهد صفين والنهروان ثم مازال مجاهداً بعد هذا العمر الطويل الذي يقارب المائة عام أو يزيد حيث إن تلك المعركة التي استشهد فيها كانت عام تسعة وسبعين للهجرة .

وهذا من عجائب ذلك الجيل الفريد حيث اختلط الشوق إلى الجهاد في دمائهم وصار جزءاً من حياتهم ، وأصبحت الشهادة في سبيل الله تعالى أسمى أمانيتهم ، فأكسبوا بذلك أمتهم الإسلامية عبر الأجيال ذلك الميراث الكبير في الدولة الإسلامية العظمى .

هذا وإننا في محاولة تقييم ماحدث في مواجهة ذلك الحصار الذي أحكم الأعداء إغلاقه على المسلمين لابد أن نقول إن قائد ذلك الجيش عبد الله بن أبي بكر قد وقع في شيء من الخطأ حينما توغل في تلك البلاد وهو غير خبير بها ولم يقدِّم أمامه طلائع يكشفون له الطريق ويبلغونه خبر الأعداء .

كما أنه أخطأ حينما لم يعقد مجلس الشورى لبحث سبل الخروج من تلك المعضلة ، بل أبرم الصلح مع ملك الترك على دفع مبلغ من المال ليفتح للمسلمين مخرجاً يخرجون منه ويعودون من حيث أتوا ، فكان من نتائج ذلك أن عارض أكبر قادته قائد أهل الكوفة شريح بن هانئ ، ثم حصل بسبب ذلك افتراق جيش المسلمين .

إن الذي أقدم عليه عبد الله بن أبي بكر رأي سديد لأن فيه

إنقاذاً للمسلمين من تلك المعضلة التي قد ينتج عنها مهلكة ، ولكن الرأي السديد يفقد مفعوله إذا انحلت جماعة الجيش وتفرقت كلمة قادتهم ، ولو أن الأمر تمَّ عن طريق الشورى لربما برزت آراء جيدة من أناس لهم وزنهم يُقنعون الطرف الآخر المعارض للصلح ، أو لربما انبثق من بين الرأيين رأي وسط يكون فيه حل لتلك المعضلة ، فكم واجه المسلمون من معضلات ثم حلوها بالشورى .

أما موقف شريح بن هانئ فإنه يدل على قوة إيمانه وصدق توجهه نحو رضوان الله تعالى والدار الآخرة ، ولقد أتبع القول بالعمل فقاتل الأعداء حتى استشهد هو وبعض من معه .

ولكن هل يقال إنه في ذلك الإقدام قد خالف أمر القائد وطاعة القائد واجبة ؟

نعم يعتبر ذلك مخالفة ، ولكنه فهم أن القائد قد ارتكب مخالفة شرعية في ذلك الانهزام والتسليم للأعداء ، والبَتُّ بذلك الأمر بدون مشورة أهل الرأي ، وإنما الطاعة في المعروف ، لكن كان الأولى في هذا الموقف أن يبذل جهده في إنكار ما حدث وأن يحاول تغيير رأي القائد وإقناع الناس ليساعدوه في ذلك فإن حصل له ما يريد من الرأي وإلا فإن عليه أن يتبع الجماعة ، وأن لا يكون سبباً في فرقة المسلمين ، لأن ذلك يعزز من موقف الأعداء ، وهو لم يكسب في موقفه الشجاع نصراً للمسلمين بشكل ظاهر ، وإنما كسب الشهادة هو ومن رزقها معه ، وخلد لتلك البلاد شرفاً عالياً أن ضمت بين أحضانها جثث أولئك الصالحين الأتقياء ، فرحمهم الله رحمة واسعة وجزاهم على ما قدموا أحسن الجزاء .

أما الذين نجوا من تلك المعركة فإنهم خرجوا من بلاد رتبيل -
كما جاء في رواية الطبري المذكورة - فاستقبلهم من خرجوا إليهم من
المسلمين بالأطعمة ، فإذا أكل أحدهم وشبع مات ، فلما رأى ذلك
الناس حذروا يطعمونهم ، ثم جعلوا يطعمونهم السمن قليلا قليلا
حتى استمروا .

جهاد ابن الأشعث :

جاء في خبر الإمام الطبري المذكور أن الحجاج بن يوسف تأثر من
ذلك فكتب إلى عبد الملك يستأذنه في بعث جيش كبير لتأديب الترك
وفتح بلادهم فأذن له في ذلك فبعث أربعين ألفاً من أهل الكوفة وأهل
البصرة بقيادة عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث ، وأنه سار إلى بلاد
ماوراء النهر فأوقع بالأعداء واستولى على بعض بلادهم وأموالهم ،
ثم قفل راجعاً على أمل أن يعود إليهم في العام القادم ، وأنه كتب
إلى الحجاج بذلك فلامه واتهمه بالضعف وأمره بالعودة لإكمال
الفتح ، ثم ماكان من فتنة ابن الأشعث حينما ثار على الحجاج وخلع
بيعته وجرت بينه وبين الحجاج حروب طويلة كانت نهايتها على ابن
الأشعث في دير الجماجم حيث انتصر عليه جيش الشام بقيادة
الحجاج (١) .

جهاد المهلب بن أبي صفرة :

إضافة إلى ذلك كانت هناك جهود طيبة في التمهيد لفتح بلاد
ماوراء النهر من المهلب بن أبي صفرة الذي كان واليا على خراسان

(١) تاريخ الطبري ٦/ ٣٢٣ - ٣٦٧ .

فقد أناب ابنه المغيرة على « مرو » وارتحل بجيشه حتى قطع النهر وقاتل الترك ، ثم استقر ببلدة « كِسْ » ورابط فيها ستين محاولاً تثبيت أقدام المسلمين في أوائل تلك البلاد ليستطيعوا بعد ذلك التوغل داخل تلك الممالك بأمان (١) .

ومن المواقف المذكورة في تلك الحروب ماكان من يزيد بن المهلب وقد أرسله أبوه إلى مرو ليخلفه في إمارتها لما توفي أخوه المغيرة وقد واجه جيشاً من الترك في خمسمائة رجل وكان هو في ستين أو سبعين فطلب الترك منهم شيئاً فأبى يزيد ولكن صاحبه مُجَاعَة العتكي أعطاهم شيئاً من المتاع ، فذهبوا ثم غدروا ورجعوا فقال يزيد : أنا كنت أعلم بهم فقاتلوهم ، فقاتلوهم واشتد قتالهم وأصاب يزيد عظيماً من عظمائهم وأصيب هو في ساقه ، ثم تحاجزوا وطلب الترك منهم شيئاً من المتاع فرفض يزيد ، فقال له مُجَاعَة : أذكرك الله قد هلك المغيرة ، وقد رأيت مادخل على المهلب من مصابه ، فأنشدك الله أن تصاب اليوم - وكان المهلب قد وجد على فقد ابنه المغيرة وجداً شديداً - فقال يزيد : إن المغيرة لم يَعدْ أجله ولست أعدو أجلي ، فرمى لهم مُجَاعَة بعمامة صفراء فأخذوها وانصرفوا (٢) .

وهذا دليل على قوة إيمان « يزيد » بقضاء الله وقدره ، حيث طلب منه مجاعة تفادي القتال إبقاء على نفسه فرد عليه ببيان حتمية بلوغ الأجل المحدد من العمر وعدم تجاوز ذلك بلحظة واحدة .

(١) تاريخ الطبري ٣٢٥ - ٣٢٦ .

(٢) تاريخ الطبري ٣٥١/٦ .

وهكذا يصنع الإيمان القوي من المؤمنين رجالا أبطالا لا يهابون
خوض الأهوال ولا ركوب الصعاب .

*

*

*

٢ - فتوحات قتية بن مسلم الباهلي -

أما العهد الذهبي بالنسبة لفتوح بلاد ماوراء النهر فقد بدأ بولاية قتية بن مسلم الباهلي ، هذا الرجل الشجاع والقيادي الماهر والإداري المحنك ، حيث بذل كل طاقته في ذلك الفتح حتى ارتبط به وأصبح بحق فاتح تلك البلاد .

ولقد استفتح إمارته بخطبة جهادية رائعة قال فيها : إن الله أحلَّكم هذا المحل ليعز دينه ، ويذبَّ بكم عن الحرمات ، ويزيد بكم المال استفاضة والعدو وقما (١) ووعد نبيه ﷺ النصر بحديث صادق وكتاب ناطق فقال ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ [الصف: ٩] ووعد المجاهدين في سبيله أحسن الثواب ، وأعظم الذخر عنده فقال ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطْئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نِيلاً إِلَّا أَكْتُبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (١٢٠) وَلَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا أَكْتُبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [التوبة: ١٢٠، ١٢١] ثم أخبر عن قتل في سبيل الله أنه حي مبروق فقال ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أحيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْزُقُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٩] فتتجزوا موعود ربكم ، ووطنوا أنفسكم على أقصى أثر وأمضى ألم ، وإياي والهويني (٢) .

(١) يعني ذلاً .

(٢) تاريخ الطبري ٤٢٤/٦ .

وهكذا يتبين لنا من خطبة قتيبة أن هدفه الأول في إمارته على خراسان هو دفع الناس إلى الجهاد في سبيل الله تعالى بحزم وقوة ، فانطلق في تحقيق هذا الهدف غير متردد ولا وجل ، حتى فتح بلاد ماوراء النهر وأقرَّ حكم الإسلام فيها ، وأشرف على الصين و أخذ من ملكها الجزية .

ولقد سارع بعض الأمراء القريبين منه إلى عقد الصلح معه لسبق علمهم بقوته وحزمه ، وأنه لن يتركهم حتى يوطئ الخيل بلادهم ، فأطلقوا مَنْ عندهم من أسرى المسلمين وبادروا إلى الصلح .

وقد أخرج ابن جرير في ذلك عن محمد بن المثنى أن « نيزك طرخان » - يعني ملك طرخان - كان في يديه أسراء من المسلمين ، وكتب إليه قتيبة حين صالح ملك شومان فيمن في يديه من أسرى المسلمين أن يطلقهم ، ويهدده في كتابه ، فخافه نيزك ، فأطلق الأسرى ، وبعث بهم إلى قتيبة فوجه إليه قتيبة سُلَيْمًا الناصح مولى عبید الله بن أبي بكرة يدعوهُ إلى الصلح وإلى أن يؤمنه ، وكتب إليه كتابا يحلف فيه بالله : لئن لم يَقدِّمَ عليه ليغزوَنَّهُ ، ثم ليطلبنه حيث كان ، لا يقطع عنه حتى يظفر به أو يموت قبل ذلك ، فقدم سليم على نيزك بكتاب قتيبة - وكان يستنصحه - فقال له : يا سُلَيْم ما أظن عند صاحبك خيرا ، كتب إلي كتابا لا يكتب إلي مثلي ، قال له سليم : يا أبا الهَيَّاج إن هذا رجل شديد في سلطانه ، سهل إذا سوهل ، صعب إذا عوسر ، فلا يمنعك منه غلظة كتابه إليك ، فما أحسن حالك عنده وعند جميع مضر ، فقدم نيزك مع سليم على قتيبة فصالحه أهل

باذغيس في سنة سبع وثمانين على أن لا يدخل باذغيس (١) .

ومن هذا النص ندرك بعض مظاهر عظمة قتيبة القيادية فقد حصل في هذا الكتاب التهديدي القوي على فك أسرى المسلمين كما أنه تفادى بذلك إقحام المسلمين في معارك جانبية تشغلهم عن الهدف الأهم وهو فتح بلاد ماوراء النهر .

فتح مدينة بيكند :

أخرج الإمام الطبري عن عدد من الرواة : أن قتيبة لما صالح نيزك أقام إلى وقت الغزو ، ثم غزا في تلك السنة - سنة سبع وثمانين - بيكند ، فسار من « مرو » (٢) وأتى « مرو الروذ » ثم أتى « أمل » ، ثم مضى إلى « رَمَ » فقطع النهر ، وسار إلى بيكند - وهي أدنى مدائن بخارى إلى النهر يقال لها مدينة التجار على رأس المفارة من بخارى - فلما نزل بعقوتهم (٣) استنصروا الصغد واستمدوا من حولهم ، فأتوهم في جمع كثير وأخذوا بالطريق فلم ينفذ لقتيبة رسول ، ولم يصل إليه رسول ، ولم يَجْرِ له خبر شهرين وابطأ خبره على الحجاج ، فأشفق الحجاج على الجند ، فأمر الناس بالدعاء لهم في المساجد ، وكتب بذلك إلى الأمصار وهم يقتلون كل يوم .

قال : وكان لقتيبة عين يقال له تَنْذُر من العجم فأعطاه أهل بخارى الأعلى مالا على أن يفتأ عنهم قتيبة (٤) ، فاتاه فقال : أخلني

(١) تاريخ الطبري ٤٢٨/٦ .

(٢) يعني مرو الشاهجان .

(٣) أي بساحتهم .

(٤) يعني أن يصرفه عن قتالهم .

. فنهض الناس واحتبس قتيبة ضرار بن حصين الضبي ، فقال تنذر : هذا عامل يقدم عليك وقد عَزِلَ الحجاج . فلو انصرفت بالناس إلى مرو ، فدعا قتيبة « سياه » موله فقال : اضرب عنق تنذر ، فقتله ، ثم قال لضرار : لم يبق أحد يعلم هذا الخبر غيري وغيرك وإني أعطي الله عهداً إن ظهر هذا الحديث من أحد حتى تنقضي حربنا هذه لألحقنك به ، فاملك لسانك ، فإن انتشار هذا الحديث يفت في أعضاد الناس ، ثم أذن للناس .

قال : فدخلوا فراعهم قتل تنذر ، فوجموا وأطرقوا ، فقال : قتيبة : ما يروعنكم من قتل عبد أحانه الله ؟ ^(١) قالوا : إنا كنا نظنه ناصحاً للمسلمين ، قال : بل كان غاشياً فأحانه الله بذنبه فقد مضى لسبيله فاغدوا على قتال عدوكم ، والقوهم بغير ما كنتم تلقونهم به .

وهكذا يكون الحزم وسداد الرأي ، والتعلق الكريم بالأهداف العالية ، إنه حينما أثار ذلك المولى الخائن أمر عزل الحجاج وبعث وال آخر على خراسان ، لم يدُر في خلد قتيبة أمر مستقبله ومستقبل قبيلته وأعوانه ، وإنما كان الذي يهيمن عليه هو مستقبله مع أعدائه ، فقد نصب أمامه هدفاً عالياً يسعى لتحقيقه ، وهو أن يُظهر عزة الإسلام في الأرض ، وأن يُخضع ممالك الطغيان لهذا الدين . وإذا كان الأمر كذلك فليبق أميراً أوليكن الأمير غيره . كما أن في موقفه هذا تغليب جانب الحذر من مكائد الأعداء وعدم الخفة والإسراع في التأثر بأراجيفهم التي يقصدون منها الفت في أعضاد المسلمين وتوهين أمرهم .

(١) أي أهلكه .

وفيما قام به من المبادرة إلى قتل ذلك الرجل ، وأخذ العهد على
جليسه حزم وسداد في الرأي لأن فيه قطعاً لموارد الفتنة قبل
استفحالها .

وهكذا تحطمت مكيدة الأعداء أمام حزم هذا القائد الكبير ورسوخ
يقينه .

قال : « فغدا الناس متأهين وأخذوا مصافهم ومشى قتيبة فحضر
أهل الرايات ، فكانت بين الناس مشاورة^(١) ثم تراحفوا والتقوا ،
وأخذت السيوف مأخذها ، وأنزل الله على المسلمين الصبر فقاتلوهم
حتى زالت الشمس ، ثم منح الله المسلمين أكتافهم ، فانهزموا يريدون
المدينة ، واتبعهم المسلمون فشغلوهم عن الدخول ففرقوا وركبهم
المسلمون قتلاً وأسرًا كيف شاؤوا ، واعتصم من دخل المدينة بالمدينة
وهم قليل ، فوضع قتيبة الفعلة في أصلها ليهدمها ، فسألوه الصلح
فصالحهم ، واستعمل عليهم رجلاً من بني قتيبة » .

وهكذا كان جزاء الاحتساب والصبر وحسن الظن بالله تعالى
والثقة بنصره ، فقد كان الأعداء في بلادهم ، ويأتيهم المدد متى أرادوا
من الطعام والسلاح والمقاتلين ، ولكن المسلمين محصورون لا منعة لهم
بعد الله جل وعلا إلا بثقتهم بأنفسهم وصبرهم وتضحياتهم في سبيل
الله تعالى .

قال : « وارتحل عنهم يريد الرجوع : فلما سار مرحلة أو ثنتين ،
وكان منهم على خسمة فراسخ نقضوا وكفروا ، فقتلوا العامل

(١) يعني قتالا في الرماح .

وأصحابه، وجَدَعُوا أَنْفَهُمْ وَأَذَانَهُمْ ، وبلغ قتيبة فرجع إليهم وقد تحصنوا فقاتلهم شهراً ، ثم وضع الفَعْلَة في أصل المدينة فعلقوها بالخشب ، وهو يريد إذا فرغ من تعليقها أن يحرق الخشب فتهدم ، فسقط الحائط وهم يعلقونه فقتل أربعين من الفعلة ، فطلبوا الصلح فأبى وقاتلهم فظفر بهم عنوة ، فقتل من كان فيها من المقاتلة » .

وهكذا كان قتيبة مصراً على الفتح ، حازماً في عدم قبول الصلح ، وذلك لأنهم نقضوا العهد ، وقتلوا المسلمين ومثلوا بهم ، فما جزاؤهم إلا القتل وتطهير الأرض منهم .

وبهذا انتهى قتيبة من أول معركة شرسة يخوضها مع أولئك الأعداء ، وأصبح لها مابعداها ، وعُرف فيه الترك رجلاً قوياً لايهادن الباطل ولا يهاب الأهوال .

قال : « وكان فيمن أخذوا في المدينة رجل أعور كان هو الذي استجاش الترك على المسلمين فقال لقتيبة : أنا أفدي نفسي ، فقال له سُلَيْمُ الناصح : ماتبذل ؟ قال : خمسة آلاف حريرة صينية قيمتها ألف ألف ، فقال قتيبة : ماترون ؟ قالوا : نرى أن فداءه زيادة في غنائم المسلمين ، وماعسى أن يبلغ من كيد هذا ! قال : لا والله لاتروع بك مسلمة أبدا ، وأمر به فقتل (١) .

وهكذا أصر قتيبة على قتل ذلك الرجل الذي كان يخطط للأعداء ويحرضهم على المسلمين ، وكان قتيبة موفقاً حينما لم يقبل منه الفداء مع ضخامته لأنه يقاتل المسلمين بفكره وتدييره ولن يكتفي بهذا الموقف

(١) تاريخ الطبري ٤٢٩/٦ - ٤٣١ .

الخائن بل سيستمر في تدبير المؤامرات ضد المسلمين ، فالحكمة كل
الحكمة في قطع دابره .

وحينما لاحظ بعض مستشاري قتيبة ضخامة المال الذي يريد أن
يفدي نفسه به ، وهوتوا عليه ما يمكن أن يقوم به من مكيدة لاحظ هو
مستقبل وضع المسلمين في ذلك البلد ، فرأى أن ذلك المبلغ وأضعافه
لا يعادل ترويع امرأة من المسلمين ، بما يترتب على مكائده من أذى
يلحق بالمرابطين في تلك البلاد ، وهذا يدلنا على الأهداف السامية
التي كانت وراء إقدام قتيبة على فتح تلك البلاد .

هذا وقد ذكر الطبري في حوادث سنة ثمان وثمانين أن قتيبة غزا
«تومشكت وراميشنة» من قرى بخارى وأن أهلها صالحوه فانصرف
عنهم ، وجعل على ساقة الجيش أخاه عبد الرحمن في طائفة من
الجيش وأن الترك اجتمعوا مع الصفد وأهل فرغانة بقيادة ابن أخت
ملك الصين في مائتي ألف ، وأنهم لحقوا بعبد الرحمن فقاتلهم
بجيشه وثبت لهم وأرسل إلى قتيبة فرجع وقد كادوا يستأصلون
المسلمين فثبتهم الله وهزموا أعداءهم .

وهذا موقف عظيم يذكر لعبد الرحمن بن مسلم الذي كان غالبا
في المقدمة عند الغزو وفي الساقة عند القفول ، وفي هذا الموقف دلالة
على عظمة المسلمين وشجاعتهم النادرة حيث ثبت جزء من جيش قتيبة
لمائتي ألف ولم يفروا (١) .

(١) تاريخ الطبري ٤٣٦/٦ ، تاريخ خليفه / ٣٠٠ .

فتح مدينة بخارى :

ذكر الإمام الطبري أن قتيبة بن مسلم الباهلي غزا بخارى عام تسعة وثمانين وأنه فتح قرية دونها تسمى «راميثنه» وأنه رجع من غزوته تلك ، وأن الحجاج كتب إليه يأمره بالعودة إلى غزو ملك بخارى ، وأن قتيبة رجع فلقية الصغد وأهل كِشْ ونَسَف في طريق المفازة فقاتلوه فظفر بهم ، ومضى إلى بخارى فنزل خرقانة السفلى عن يمين وردان ، فلقوه بجمع كثير فقاتلهم يومين وليلتين ، ثم أعطاه الله الظفر عليهم فقال نهار بن تَوْسعة :

وباتت لهم مِنَّا بخرقان ليلة وليلتنا كانت بخرقان أطولا

ثم ذكر أن قتيبة لم يستطع فتح بخارى ذلك العام فرجع إلى مرو وكتب إلى الحجاج بذلك ، فكتب إليه الحجاج : أن صورها لي ، فبعث إليه بصورتها ، فكتب إليه الحجاج : أن ارجع إلى مراغتك فتب إلى الله مما كان منك وأنها من مكان كذا وكذا .

قال وقيل : كتب الحجاج : أن كَسْ بكشْ وانسُف نسف ، ورد وردان ، وإياك والتحويط ، ودعني من بنيات الطريق .

ومن كتابات الحجاج هذه وما قبلها نأخذ فكرة عن اهتمامه البالغ باستمرار الغزو والفتح ، وقد كان ذلك من أسباب قيام ابن الأشعث بالثورة عليه ، حيث اكتفى ابن الأشعث بغزو أدنى بلاد ما وراء النهر ، فلامه الحجاج واتهمه بالضعف .

ثم استمر الحجاج في حث قتيبة على مواصلة الغزو وأمره أن لا يرجع حتى يفتح بخارى ، ولما استعصى ذلك على قتيبة أمره

الحجاج يبعث صورة لتلك المدينة ، فنظر باجتهاده إلى موطن الضعف فيها فأشار على قتيبة بالمكان الذي يدخلها منه ، ثم أمر قتيبة بأن يدمر المدن التي تقف عقبة في طريقه ، وذكر منها مدينة نسف ، وأمره أن يتجه رأساً إلى وردان ملك بخارى ، وأن يجعلها بعد الفتح معقلاً له ينطلق منها ، وعبر بقوله « ارجع إلى مراغتك » عن الأمر بلزوم فتح بخارى تشبيهاً لها بمراغة الدابة التي تتقلب فيها .

وأمره أن يجتنب سياسة التحويط حول الهدف ابتغاء اليسر والسهولة ، وأن يسلك الطريق المستقيم الموصل إلى الهدف المقصود دون تعريض على الأهداف الجانبية التي تحقق بعض الغنائم والنصر المؤقت .

وهذا يدلنا على أن الحجاج باهتمامه ومتابعته المتلاحقة للقادة كان عاملاً مهماً في فتح بلاد ماوراء النهر ، وتلك حسنة توضع في مقابل سيئاته المشهورة .

وفي فتح بخارى أخرج الإمام الطبري بإسناده عن إدريس بن حنظلة « أن كتاب الحجاج لما ورد على قتيبة يأمره بالتوبة مما كان من انصرافه عن « وردان خذاه » ملك بخارى قبل الظفر به والمصير إليه ، ويُعرفه الموضع الذي ينبغي له أن يأتي بلده منه ، خرج قتيبة إلى بخارى في سنة تسعين غازياً فأرسل وردان خذاه إلى الصغد والترك ومن حولهم يستنصرونهم ، فأتوهم وقد سبق إليها قتيبة فحصرهم ، فلما جاءتهم أمدادهم خرجوا إليها ليقاتلوهم ، فقالت الأزد : اجعلونا على حدة ، واخلؤا بيننا وبين قتالهم ، فقال قتيبة : تقدموا ،

فتقدموا يقاتلونهم ، وقتيبة جالس عليه رداء أصفر فوق سلاحه ، فصبروا جميعاً ملياً ، ثم جال المسلمون وركبهم المشركون فحطموهم حتى دخلوا عسكر قتيبة ، وجازوه ، حتى ضرب النساء وجوه الخيل وبكّين ، فكروا راجعين ، وانطوت مجنبتا المسلمين على الترك ، فقاتلوهم حتى ردوهم إلى مواقعهم ، فوقف الترك على نشر^(١) .

هذا وإن في إقدام الأزد على مواجهة ذلك الجيش الغازي موقفاً يذكر لهم ، فإن التنافس في مواجهة الأخطار فضيلة وشرف ، وفي تهقيرهم أمام الترك دلالة على قوة بأس الترك ومهارتهم في القتال ، وهذا يدلنا على سبب مهم في تأخر المسلمين في فتح بلادهم وتردد بعض القادة في التوغل في أرضهم ، حيث يتمتع الترك ومن حولهم من القبائل بقوة قتالية عالية وصبر على الجلاء ، وإن من أهم أسباب ذلك كون حياتهم تميل إلى شيء من الخشونة ، فلم تفسدهم الحضارة المادية كما هو الحال في دولة فارس .

هذا وإن في ثبات قتيبة في مركز القيادة مع هذا التهقر دلالة على رباطة جأشه ، ومقدرته الفائقة على التفكير وحسن التصرف في مواجهة المواقف الصعبة المفاجئة ، فقد أوعز حالاً إلى مجنبتى جيش المسلمين بالهجوم على الأتراك فأطبقوا عليهم وهزموهم ، وألجئوهم إلى مرتفع من الأرض يُحصّنه نهر بينهم وبين المسلمين .

قال : « فقال قتيبة : من يزيلهم لنا عن هذا الموضع ؟ فلم يُقدم عليهم أحد ، والأحياء كلها وقوف ، فمشى قتيبة إلى بني تميم ،

(١) يعني مرتفع من الأرض .

فقال : يا بني تميم إنكم أنتم بمنزلة الحطمية ، فيومٌ كأيامكم ، أيي لكم
الفداء ، قال : فإخذ وكيع اللواء بيده وقال : يا بني تميم أتسلمونني
اليوم ؟ قالوا : لا يا أبا مطرف - وهريم بن أبي طلحة المجاشعي على
خيـل بني تميم ، ووكيع رأسهم - والناس وقوف ، فأحجموا جميعاً ،
فقال وكيع : ياهريم أقدم ، ودفع إليه الراية ، وقال : قدم خيلك ،
فتقدم هريم ، ودب وكيع في الرجال ، فأنتهى هريم إلى نهر بينه وبين
العدو فوقف ، فقال له وكيع : أقحم ياهريم ، قال : فنظر هريم إلى
وكيع نظر الجمل الضئول ، وقال : أنا أقحم خيلي هذا النهر ، فإن
انكشفت كان هلاكها ! والله إنك لأحمق ، قال : يا بن اللّـخناء ألا
أراك ترد أمري ! وحذفه بعمود كان معه ، فضرب هريم فرسه فأقحمه
وقال : مابعد هذا أشد من هذا ، وعبر هريم الخيل ، وانتهى وكيع إلى
النهر فدعا بخشب ففطنظر النهر وقال لأصحابه : من وطّن منكم نفسه
على الموت فليعبر ، ومن لا فليثبت مكانه ، فما عبر معه إلا ثمانمائة
راجل ، فدب فيهم ، حتى إذا أعيوا أقعدهم فأراحوا حتى دنا من
العدو ، فجعل الخيل مجنبتين ، وقال لهريم : إني مطاعن القوم
فاشغلهم عنا بالخيل ، وقال للناس : شدوا ، فحملوا فما انثنوا حتى
خالطوهم . وحمل هريم خيله عليهم ، فطاعنهم بالرماح ، فما
كفوا عنهم حتى حذروهم عن موقفهم ، ونادى قتيبة : أما ترون
العدو منهزمين ! فما عبر أحد ذلك النهر حتى ولّى العدو منهزمين ،
فاتبعهم الناس .

وهكذا تبين لنا موقف بني تميم الشجاع حيث أحجمت كل
القبائل عن مواجهة أولئك الذين تحصنوا بذلك المرتفع ، فلم يُقدم

على هذا الموقف الهائل إلا وكيع بن أبي أسود التميمي وقبيلته، ولقد أحسن صنعاً حينما عرض قومه على الموت، فاختار منهم من تطوع مقبلاً على الشهادة ، لأن مثل هذا الوطن المهلك لا يقدم عليه من له رغبة في الحياة ، فاستطاع هؤلاء الأبطال - على قلتهم - أن يزيلوا الأعداء من موقعهم ذلك ، لأن كل واحد منهم يعدل عشرات من الجنود العاديين .

وقال قتيبة : من جاء برأس فله مائة ، فأتى برؤوس كثير من القتلى .

وهذا يعتبر دافعاً جيداً للجنود ليلذلوا كل طاعتهم في ملاحقة العدو .

وجرح يومئذ ملك الترك خاقان وابنه، وتم فتح مدينة بخارى^(١) .
فتح مدينة سمرقند^(٢) :

أخرج الإمام الطبري في ذلك عن شيوخه : أن قتيبة لما قبض صلح خوارزم قام إليه المُجَشَّر بن مزاحم السُّلَمي فقال : إن لي حاجة فأخِلني ، فأخلاه ، فقال : إن أردت الصُّغد يوماً من الدهر فالآن فإنهم آمنون من أن تأتيهم من عامك هذا ، وإنما بينك وبينهم عشرة أيام ، قال : أشار بهذا عليك أحد ؟ قال : لا ، قال : فأعلمته أحداً؟ قال : لا ، قال : والله لئن تكلم به أحد لأضربن عنقك ، فأقام يومه ذلك ، فلما أصبح من الغد دعا عبد الرحمن - يعني أخاه -

(١) تاريخ الطبري ٤٤٢/٦ - ٤٤٤ ، الكامل لابن الأثير ٤/ ١١٣ .

(٢) سمرقند من أهم مدن ماوراء النهر وتعتبر الآن من المدن المهمة في أوزبكستان .

فقال سرّ في الفرسان والمُرّامية وقدمّ الأثقال إلى مرو، فَوُجِّهت الأثقال إلى مرو ، ومضى عبد الرحمن يتبع الأثقال يريد مرو يومه كله ، فلما أمسى كتب إليه : إذا أصبحت فوجه الأثقال إلى مرو، وسرّ في الفرسان والمرامية نحو السغد ، واكتم الأخبار فإني في الأثر.

قال : فلما أتى عبد الرحمن الخبرُ أمر أصحاب الأثقال أن يمضوا إلى مرو ، وسار حيث أمره ، وخطب قتيبة الناس فقال : إن الله تعالى قد فتح لكم هذه البلدة في وقت الغزو فيه ممكن ، وهذه السغد شاغرة برجلها قد نقضوا العهد الذي كان بيننا منعونا ما كنا صالحنا عليه « طرخون » وصنعوا به ما بلغكم وقال الله تعالى ﴿ وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴾ [الفتح : ٢١].

قال : فأتى السغد وقد سبقه إليها عبد الرحمن بن مسلم في عشرين ألفا ، وقدم عليه قتيبة في أهل خوارزم وبخارى بعد ثلاثة أو أربعة من نزول عبد الرحمن بهم ، فقال : إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين .

فحصروهم شهرا ، فقاتلوا مراراً في حصارهم من وجه واحد^(١) . وهكذا كان قتيبة حازماً حينما اغتتم تلك الفرصة وقبِل مشورة المجشّر السلمي ، وكان من مظاهر حزمه احتياطه البالغ في كتمان خبر مسيره إلى أهل سمرقند حتى يصل إليهم قبل أن يستمدوا الملوك المجاورين لهم ، فهتدّد صاحب المشورة إن هو أعلنها ، ووجه أخاه

(١) تاريخ الطبري ٤٧٢/٦ ، باختصار .

عبد الرحمن وأمره أن يكتب الخبر ثم خطب الناس وأعلمهم بمسيره ومسوغات ذلك بعد أن وثق من عدم شيوع الخبر قبل وصول أخيه عبد الرحمن إلى ساحة القوم .

وقد بين في خطبته أن القوم قد نقضوا العهد فزال عهدهم واستحقوا العقاب وأصبح تطهير البلاد منهم أمراً لازماً .

وفي رواية أخرى للطبري عن نهشل بن يزيد عن عمه - وكان قد أدرك ذلك كله - قال : لما رأى غوزك - يعني ملك سمرقند - إلحاح قتيبة عليهم كتب إلى ملك الشاش وإخشاذ فرغانة (١) وخاقان : إنا نحن دونكم فيما بينكم وبين العرب ، فإن وُصِلَ إلينا كنتم أضعف وأذل ، فمهما كان عندكم من قوة فابذلوها ، فنظروا في أمرهم فقالوا : إنما نؤتى من سفلتنا ، وإنهم لا يجدون كوجدنا ، ونحن معشر الملوك المعنيون بهذا الأمر ، فانتخبوا أبناء الملوك ، وأهل النجدة من فتيان ملوككم ، فليخرجوا حتى يأتوا عسكر قتيبة فليبيّت فإنه مشغول بحصار الصغد ، ففعلوا وولّوا عليهم ابناً لخاقان ، وساروا وقد أجمعوا أن يبيّتوا العسكر .

وبلغ قتيبة فانتخب أهل النجدة والبأس ووجوه الناس ، فكان شعبة بن ظهير وزهير بن حيان فيمن انتخب فكانوا أربعمائة ، فقال لهم : إن عدوكم قد رأوا بلاء الله عندكم وتأييده إياكم في مزاحفتكم ومكائرتكم ، كل ذلك يُفلجكم الله عليهم فأجمعوا على أن يحتالوا غرّتكم وبياتكم ، واختاروا دهاقينهم وملوكهم وأنتم دهاقين العرب

(١) الشاش وفرغانة من مناطق دولة أوزبكستان اليوم ، وتعتبر طاشكند العاصمة من منطقة الشاش .

وفرسانهم ، وقد فضلكم الله بدينه ، فأبْلُوا الله حسنا تستوجبون به الثواب ، مع الذب عن أحسابكم .

قال : ووضع قتيبة عيونا على العدو حتى إذا قربوا منه قدر ما يصلون إلى عسكره من الليل ، أدخل الذين انتخبهم ، فكلَّمهم وحضَّهم ، واستعمل عليهم صالح بن مسلم ، فخرجوا من العسكر عند المغرب ، فساروا فزّلوا على فرسخين من العسكر على طريق القوم الذين وُصفوا لهم ، ففرَّق صالح خيله ، وأكمن كمينًا عن يمينه ، وكمينًا عن يساره ، حتى إذا مضى نصف الليل أو ثلثاه جاء العدو باجتماع وإسراع وصمت ، وصالح واقف في خيله ، فلما رآوه شدوا عليه ، حتى إذا اختلفت الرماح شدَّ الكمينان عن يمين وعن شمال ، فلم نسمع إلا الاعتزاء ، فلم نَرَقَوْمًا كانوا أشد منهم .

قال : وقال رجل من البراجم : حدثني زهير أو شعبة قال : إنا لَنختلف عليهم بالطعن والضرب إذا تبينت تحت الليل قتيبة ، وقد ضربت ضربة أعجبتني ، وأنا انظر إلى قتيبة فقلت : كيف ترى بأبي أنت وأمي ، فقال : اسكت دَقَّ الله فاك ، قال : فقتلناهم فلم يُفَلت منهم إلا الشريد ، وأقمنا نحوي الأسلاب ونحتزُّ الرؤوس حتى أصبحنا ، ثم أقبلنا إلى العسكر ، فلم أر جماعة قط جاؤوا بمثل ماجئنا به ، مامنا رجل إلا معلق رأسا معروفًا باسمه ، وأسيرٌ في وثاقه .

قال : وجئنا قتيبة بالرؤوس فقال : جزاكم الله عن الدين والأعراض خيرا ، وأكرمني قتيبة من غير أن يكون باح لي بشيء ، وقرن بي في الصلة والإكرام حيَّان العدوي وحُلَيْسًا الشيباني ، فظننت

أنه رأى منهما مثل الذي رأى مني ، وكسر ذلك أهل السغد ، فطلبوا الصلح وعرضوا الفدية فأبى وقال : أنا ثائر بدم طرخون كان مولاي وكان من أهل ذمتي (١) .

وفي بيان صفة جيش الأعداء المنتخب جاء في إحدى روايات الطبري « فسألناهم (٢) عمّن قتلنا ، فقالوا : ماقتلتم إلا ابن ملك أو عظيماً من العظماء أو بطلا من الأبطال ، ولقد قتلتم رجالا إن كان الرجل ليعدل بمائة رجل » (٣) .

وهكذا جاء المدد لأهل سمرقند الذي من أجله كتم قتيبة خبر إقدامه عليهم ولكن مجيئه كان بعد أن أحكم حصار المدينة ، ولقد كان مجيء ذلك الجيش المنتخب من أبناء الملوك والأبطال خيراً كثيراً على المسلمين في مستقبل جهادهم ، حيث قتلوا خيرة فرسان فرغانة والشاش ، وأسروا بعضهم ، فسهل عليهم ذلك غزو بلادهم .

وهكذا أرادها ملوك الشاش وفرغانة مكيدة للمسلمين ليأخذوهم على غرة ، وانتخبوا أفضل ما عندهم من المقاتلين ، ولكن المسلمين قد تفوقوا عليهم كثيراً في الرصد الحربي ، فعلموا عن تحركهم ، فانتخب قتيبة جيشاً من أهل النجدة بقيادة أخيه صالح بن مسلم ، ثم بث عيونهم فعلم منهم الليلة التي سيصلون فيها .

(١) طرخون حاكمهم الأول الذي عقد الصلح مع قتيبة وقد خلعه وولوا نيزك ، يعني أن أهل الذمة الذين يدفعون الجزية يجب على المسلمين حمايتهم - تاريخ الطبري ٤٧٦/٦ - ٤٧٨ - .

(٢) يعني الأسرى .

(٣) تاريخ الطبري ٤٧٤/٦ .

ورجعت مكيدة الأعداء عليهم ، وكان صالح موفقاً حينما وضع لهم الكمينين ، فلم يفجأ جيش الأعداد إلا المقاتلون من المسلمين على قارعة الطريق ، وكان خروج الكمينين عند التحام المعركة مفاجأة أخرى مذهلة ، بددت طاقاتهم ، فقتل أكثرهم وأسر بعضهم .

وهكذا يظهر المسلمون في كل حروبهم في القرن الأول أعظم تفوقاً في التخطيط الحربي ، وفي المواجهات الميدانية .

ولقد كان غير خاف على قتيبة أن ذلك الجيش المنتخب سيتقدمه رَصَدٌ وعيون، خاصة وأن فيهم أبناء ملوكهم، فلم يُخرج الجيش الإسلامي المُنتخب لقتالهم إلا ليلة وصولهم، حيث أخرجهم مع المغرب، ومن المرجح أن عيون الأعداء قد خبروا الطريق إلى جيش المسلمين في النهار فأقادوا جيش الأعداء القادم بعدم استعداد المسلمين للقائهم، وإنما قصد قتيبة أن يأخذهم ليلاً على غرة كما أرادوا هم ذلك فنجح في توريطهم، وكان عامل المفاجأة له أكبر الأثر في هزيمتهم .

ومما يشاد به حضور قتيبة تلك الليلة ومراقبته سير المعركة ، فلم يعتمد على القائد المكلف وبيّت هو بأمان وطمأنينه وذلك لاحتمال أن يتغلب جيش الأعداء بعض الشيء وينجحوا في اختراق جيش المسلمين المعدّ لهم ، وهنا لابد أنه كان في تخطيط قتيبة أن يتدب لهم من يقاومهم قبل وصولهم إلى الجيش المرابط حول المدينة ، فلما رأى ما قام به جيشه المنتخب من اصطلام جيش العدو وإبادته حمد الله تعالى على نجاح الحطة ، هذا وإن شعور الجيش بحضور قائده الأعلى ومراقبته يعطيهم دفعة قوية نحو بذل أقصى ما عندهم من قوة ، خاصة

وأنه لا يُفترض في كل الأحوال توفر من لا يخلطون إرادة الآخرة بشيء من جاه الدنيا .

ومما يشاد به أيضاً خطبة قتيبة بن مسلم التي ربط بها ذلك الجيش بالله تعالى ، فنبههم إلى أن ما قاموا به من انتصارات إنما هي بتوفيق الله جلا وعلا ، وأن الأعداء قد هالهم واقع تلك الانتصارات ، فاختاروا أفضلهم في الحرب لالتماس غرة المسلمين ، ثم ثناؤه على جيشه المنتخب ببيان أنهم عظماء المسلمين وفرسانهم ، وهذا يعطيهم دفعة قوية نحو البذل والتضحية ، ثم الإشارة المهمة إلى ما يرجح كفة المسلمين إن تعادلوهم مع أعدائهم في الكفاءة القتالية ، وهو أن الله تعالى فضل المسلمين بدينه ، فكل الفريقين منتخبون من أهل الكفاءة الحربية ولكن الروح المعنوية العالية التي يتمتع بها المسلمون لا يعادلها أي قوة معنوية أخرى ولا يقاربها .

ثم إشارته المهمة إلى الهدف الأعلى من قتالهم ، وهو أن يبلغوا رضوان الله تعالى عنهم ، إلى جانب ما يشتركون به مع غيرهم من كونهم يدافعون عن أحسابهم ، وهذا دليل على قوة ارتباط قتيبة بالله تعالى ، الأمر الذي كان له أبلغ الأثر في انتصاراته المتوالية .

ونعود الآن إلى خبر فتح قتيبة مدينة سمرقند .

قال الإمام الطبري في سياق روايته المذكورة عن شيوخه : « وَضَعَ قتيبة عليهم المجانيق فرماهم بها ، وهو في ذلك يقاتلهم لا يُقلع عنهم ، وناصحه من معه من أهل بخارى وأهل خوارزم ، فقاتلوا قتالا شديداً وبذلوا أنفسهم » .

وهكذا كان المسلمون متفوقين حتى في العتاد الحربي ، فليس للمدن المحصنة من سلاح آنذاك إلا المجانيق ونحوها من الآلات الثقيلة ، والحصون وخدها هي التي كانت تقي الأعداء من المسلمين في ذلك الوقت ، أما المسلمون فليس لهم حصون إلا ظهور خيولهم ، وهذه لا يمكن أن يحد من حركتها أي سلاح يخترعه الأعداء ، ولذلك لم يتمكن أعداؤهم في كل ميدان من استعمال الأسلحة الثقيلة ضدهم ، وليس بإمكانهم أن يجاروهم في جولاتهم على ظهور الخيل لتفوق المسلمين الباهر في هذا المجال .

ثم ذكر في الرواية المذكورة أن قتيبة اختار الشجعان وأهل الغناء في الحرب فجمع لهم جيد السلاح وزحف بهم فرسانا ورجالا نحو السور ، وثلم ثلثة بالمنجنيق ، وقال قتيبة : ألحوا عليهم حتى تعبروا الثلثة ، فقاتلوهم حتى صاروا على ثلثة المدينة ، ورماهم الصغد بالنشاب فوضعوا ترستهم ، فكان الرجل يضع ترسه على عينه ثم يحمل ، حتى صاروا على الثلثة ، فقالوا له : انصرف عنا اليوم حتى نصلحك غدا .

ثم ذكر صلحه معهم ، وأنه دخل المدينة وبُني له فيها مسجد وصلى فيه ، وأنه أتى بالأصنام فسلبت^(١) ، ثم وضعت بين يديه ، فكانت كالقصر العظيم حين جمعت ، فأمر بتحريقها ، فقالت الأعاجم : إن فيها أصناما من حرقها هلك ، فقال قتيبة : أنا أحرقها بيدي ، فجاء «غوزك»^(٢) فجثا بين يديه وقال : أيها الأمير إن شكرك

(١) يعني أزيل ماعليها من حلية الذهب وغيره .

(٢) يعني ملك سمرقند .

علي واجب ، لا تعرض لهذه الأصنام ، فدعا قتيبة بالنار ، وأخذ
شعلة بيده ، وخرج فكبر ثم أشعلها ، وأشعل الناس فاضطربت
فوجدوا من بقايا ماكان فيها من مسامير الذهب والفضة خمسين ألف
مئقال (١) .

وهكذا كان قتيبة صارما في أمر الله لايهادن على الباطل ، فلا بد
من إزالة معالم الوثنية حتى تتحرر العقول من تعظيمها ، وهذا هو أهم
أهداف الغزو الإسلامي ، لأن المقصود به تحرير العقول من هيمنة
خرافات الوثنية ، وحينما يتم حرق تلك الأصنام ثم لا يحصل بحرقها
ضرر على المسلمين يتبين لعامة الناس الذين ضللهم كبراًؤهم أن تلك
الأصنام لا تضر ولا تنفع ، فتتخلّى عقولهم من سيطرتها وسيطرة من
يروجون لها ، لتكون بعد ذلك هذه العقول أهلا للتحليّ بدين
التوحيد الذي لا يفرض سلطة دينية بين الله تعالى وعباده .

ولقد أحسن قتيبة صنعا حين تولى حرقها بنفسه لأن ذلك أبلغ في
التنفير منها وتحرير العقول من سيطرتها .

فتح إقليمي الشاش وفرغانة :

وقد ذكر الإمام الطبري خبر غزو قتيبة بلاد الشاش وفرغانة سنة
أربع وتسعين وأنه لما قطع النهر فرض على أهل بخارى وكشّ ونسّف
وخوآزم عشرين ألف مقاتل ، قال : فساروا معه إلى السغد ،
فوجّهوا إلى الشاش ، وتوجه هو إلى فرغانة وسار حتى أتى «خُجَنْدَة»
فجمع له أهلها فلقوه فاقتلوا مراراً كل ذلك يكون الظفر للمسلمين .

(١) تاريخ الطبري ٤٧٢/٦ - ٤٧٦ ، البداية ٨٥/٩ ، الكامل ١٢٦/٤ .

قال : ففزع الناس يوما فركبوا خيولهم ، فأوفى رجل على نشز ،
فقال : تالله مارأيت كالיום غرة ، لو كان هيج [يعني قتال] اليوم
ونحن على ماأرى من الانتشار لكانت الفضيحة ، فقال له رجل إلى
جنبه : كلا ، نحن كما قال عوف بن الحرّج :

نَوْمُ البلاد لحب اللقا ولانتقي طائرا حيث طارا
سَنِحًا ولاجَارِيًا بارحا على كل حال نلاقي اليسارا

وفي هذا دلالة على قوة معنوية أولئك الجنود حيث يقول هذا
الذي تمثل بهذين البيتين : إنا على استعداد تام لأي عدو يلقانا لأن
المبدأ الذي نجتمع عليه هو حب لقاء العدو .

قال : ثم أتى قتيبة كاشان مدينة فرغانة ، وأتاه الجنود الذين
وجههم إلى الشاش وقد فتحوها وحرقوا أكثرها ، وانصرف قتيبة إلى
مرو (١) .

وهكذا ذكر الإمام الطبري أخبار فتح الإقليمين المذكورين
باقتضاب ، ولكن يفهم من ذلك أن النهاية كانت سيادة حكم المسلمين
على تلك البلاد .

وقد تقدم معنا أن أهل فرغانة والشاش قد قدّموا لنصرة أهل
سمرقند خيار جيشهم من أبناء الملوك ووجوه الناس والأبطال ، وأن
المسلمين كمّنوا لهم في الطريق ليلا فأبادوا أكثرهم وأسروا بعضهم ،
فكانت هذه الفاجعة كافية لإثارة الرعب في قلوب أهل تلك البلاد
فأصبحت مقاومتهم بعد ذلك ضعيفة .

(١) تاريخ الطبري ٤٨٣/٦ - ٤٨٤ .

ثم ذكر الإمام الطبري فتح قتيبة بلاد « كاشغر » وهي تقع حالياً في تركستان الشرقية التابعة للصين ، وذلك في سنة ست وتسعين .

وذكر أن قتيبة أرسل إلى شُعْب عصام من يُسهِّل له الطريق إلى كاشغر ، ثم ذكر أنه بعث كثير بن فلان إليها فَسَبَّى منها سبيًا ، فختَم أعناقهم مما أفاء الله تعالى على قتيبة (١) .

وهكذا أيضاً ذكر فتح هذا الإقليم باختصار ، وقد تجاوزه قتيبة متجهًا إلى الصين كما سيأتي بيانه إن شاء الله .

وبهذا يكون قتيبة قد أتم فتح أقاليم بلاد ماوراء النهر وأظلمها حكم الإسلام قبل نهاية القرن الأول ، واستمر دخول أهلها في الإسلام ، حتى أصبحت بعد ذلك تكون جزءاً مهماً من بلاد المسلمين ، وأنجبت علماء أفاضل كان لهم دور بارز في نشر الإسلام وترسيخ دعائمه وخدمة العلوم الشرعية ، ويأتي على رأس قائمة هؤلاء العلماء الإمام أبو عبد الله البخاري ، ثم يأتي الإمام الترمذي والنسفي والبيهقي ، وغيرهم من العلماء الكبار .

وقد أصبحت هذه البلاد تُسمى فيما بعد تركستان الغربية وتركستان الشرقية ، وقد وقعت الأولى تحت الاحتلال الروسي عقوداً من الزمن ، وقسموها إلى خمس دول ، وهي أوزبكستان وطاجكستان ، وتركمانستان وقرقيزيا ، وكازخستان .

أما تركستان الشرقية فإنها لاتزال تحت الاحتلال الصيني . وماتزال تركستان بشرطها تحتفظ بإسلامها مع ما طرأ عليها من بُعد وانحراف .

(١) تاريخ الطبري ٥٠٠ / ٦ .

خضوع مملكة الصين للمسلمين :

ذكر الإمام الطبري أن قتيبة بن مسلم توغل شرقا حتى قَرُبَ من بلاد الصين وذلك في سنة ست وتسعين .

قال : فكتب إليه ملك الصين : أن ابعث إلينا رجلا من أشرف من معكم يخبرنا عنكم ، ونسأله عن دينكم ، فانتخب قتيبة من عسكره اثني عشر رجلا - وقال بعضهم عشرة - من أفناء القبائل ، لهم جَمَالُ وَالسُّنُ وشعور وبأس ، بعدما سأل عنهم فوجدهم من صالح من هم منه ، فكلَّمهم قتيبة وفاقطنهم ^(١) فرأى عقولا وجمالا ، وأمر لهم بَعْدَةَ حسنة من السلاح والمتاع الجيد ، من الخبز والوشي واللَّيْن من البياض والرقيق - من الثياب - والنعال والعطر وحملهم على خيول مطهَّمة تُقَادُ معهم ، ودواب يركبونها .

قال : وكان هبيرة بن المُشْمَرَج الكلابي مفوهًا بسيط اللسان ، فقال : يا هبيرة كيف أنت صانع ؟ قال : أصلح الله الأمير قد كفيت الأدب ، وقل ماشئت أقله وأخذ به ^(٢) ، قال : سيروا على بركة الله وبالله التوفيق ، لاتضعوا العمامت عنكم حتى تقدموا البلاد ، فإذا دخلتم عليه فأعلموه أنني قد حلفت أن لا أنصرف حتى أطا بلادهم ، وأختم ملوكهم ، وأجبي خراجهم .

قال : فساروا وعليهم هبيرة بن المشمرج ، فلما قدموا أرسل

(١) أي اختبر فطنتهم .

(٢) يعني قد كفيت النطق الذي تقتضيه المواقف المختلفة ، وقل ماتريد من شئون الحرب والسياسة أبلغه عنك .

إليهم ملك الصين يدعوهم ، فدخلوا الحمام ، ثم خرجوا فلبسوا ثيابا بيضا تحتها الغلائل ، ثم مَسُوا الغالية وتدخلوا ولبسوا النعال والأردية ، ودخلوا عليه وعنده عظماء أهل مملكته ، فجلسوا فلم يكلمهم الملك ولا أحد من جلسائه فنهضوا ، فقال الملك لمن حضره : كيف رأيتم هؤلاء ؟ فقالوا : رأينا قوما ماهم إلا نساء .

قال : فلما كان الغد أرسل إليهم ، فلبسوا الوشي وعمائم الخز والمطارف ، وغدوا عليه ، فلما دخلوا عليه قيل لهم : ارجعوا ، فقال لأصحابه : كيف رأيتم هذه الهيئة ؟ قالوا : هذه الهيئة أشبه بهيئة الرجال من تلك الأولى وهم أولئك .

فلما كان اليوم الثالث أرسل إليهم ، فشدوا عليهم سلاحهم ولبسوا البيض والمعافر وتقلدوا السيوف واخذوا الرماح ، وتنكبوا القسي ، وركبوا خيولهم ، وغدوا فنظر إليهم صاحب الصين ، فرأى أمثال الجبال مقبلة ، فلما دنوا ركزوا رماحهم ، ثم أقبلوا نحوهم مشمّرين ، فقبل لهم قبل أن يدخلوا : ارجعوا ، لما دخل قلوبهم من خوفهم .

قال : فانصرفوا فركبوا خيولهم ، واختلجوا رماحهم ، ثم دفعوا خيولهم ، كأنهم يتطاردون بها ، فقال الملك لأصحابه : كيف ترونهم ؟ قالوا : مارأينا مثل هؤلاء قط .

فلما أمسى أرسل إليهم الملك : أن ابعثوا إلى زعيمكم وأفضلكم رجلا ، فبعثوا إليه هبيرة ، فقال له حين دخل عليه : قد رأيتم عظيم ملكي ، وإنه ليس أحد يمنعكم مني ، وأنتم في بلادي ، وإنما أنتم

بمنزلة البيضة في كفي ، وأنا سائلك عن أمر فإن لم تصدقني قتلتمكم ،
قال : سل ، قال : لِمَ صنعتُم ما صنعتُم من الزِّي في اليوم الأول
والثاني والثالث ؟ قال : أما زينا الأول فلباسنا في أهالينا وريحنا
عندهم ، وأما يومنا الثاني فإذا أتينا أمراءنا ، وأما اليوم الثالث فزينا
لعدونا ، فإذا هاجنا هيج وفزع كنا هكذا .

قال : ما أحسن ما دبرتم دهركم ، فانصرفوا إلى صاحبكم فقولوا
له : يَنْصَرِفُ ، فإنني قد عرفت حرصه وقلة أصحابه ، وإلا بعثت
عليكم من يهلككم ويهلكه ، قال له : كيف يكون قليل الأصحاب
من أول خيله في بلادك وآخرها في منابت الزيتون ؟ وكيف يكون
حريصا من خلف الدنيا قادرا عليها وغزاك ؟ وأما تخويفك إيانا بالقتل
فإن لنا آجالا إذا حضرت فأكرمها القتل ، فلسنا نكرهه ولانخافه .

قال : فما الذي يُرضي صاحبك ؟ قال : إنه حلف أن لا ينصرف
حتى يطاء أرضكم ، ويُخْتَمَ ملوككم ، ويُعطى الجزية ، قال : فإننا
نخرجه من يمينه ، نبعث إليه بتراب من تراب أرضنا فيطوئه ونبعث
ببعض أبنائنا فيختمهم ، ونبعث إليه بجزية يرضاها .

قال : فدعا بصحاف من ذهب فيها تراب ، وبعث بحرير وذهب
وأربعة غلمان من أبناء ملوكهم ، ثم أجازهم فأحسن جوائزهم فساروا
فقدموا بما بعث به ، فقبل قتيبة الجزية ، وختم الغلّة وردهم ،
ووطئ التراب (١) .

وهكذا أظهر أعضاء هذا الوفد عزة الإسلام أمام ملك الصين

(١) تاريخ الطبري ٦/ ٥٠٠ - ٥٠٣ ، الكامل ٤/ ١٣٦ .

وحاشيته ، واجتهدوا في الظهور أمامهم بالهيئات الثلاث التي حازت إعجاب الملك بعد أن عرف تفسيرها ، وإن كانت الهيئة الحربية هي التي أوقعت الرعب فيهم ، وهي التي كان الصحابة رضي الله عنهم يظهرون بها عند مقابلة الكفار .

وفي الحوار الذي دار بين ملك الصين وهيرة نجد هيرة موفقا في عرض قوة المسلمين ، وإظهار عزتهم ، حتى أحدث ذلك الخوف في قلب ملك الصين ، فتنازل عن تهديده للمسلمين ورضي بأن يحقق لهم جميع ما يريدون في مقابل أن يتفادى القتال معهم وذلك حينما أشعره بأن قوة المسلمين ليست في هذا الجيش الذي حضر بلاده فقط ، وإنما جيشهم ممتد من بلاده إلى بلاد الشام التي هي منابت الزيتون .

ولقد كان ملك الصين ووزراؤه أصحاب عقول رشيدة حيث اعتبروا بالدروس التي تلقاها من قبلهم ، فلم يقحموا دولتهم في صراع مع المسلمين ، وقد سبق ذكر اعتذار ملك الصين من إمداد ملك الفرس لما استنجد به ، وبين له أن المسلمين - بناء على الصفات التي نقلت عنهم - لا يمكن أن يقف أمامهم أحد .

ومما يذكر في هذه المحاوراة إشارة هيرة إلى أن المسلمين لا يخافون من الموت ، ولا يمكن أن يخيفهم أحد بالقتل ، ولا يصنع ذلك فيهم شيئا ، لأنهم يؤمنون بالقدر ، ويعتقدون أن لكل إنسان أجلا لا يتجاوزه ، فإذا كتب الله تعالى انقضاء الأجل فإن أكرم أنواع الموت الشهادة في سبيل الله تعالى ، وهذه العقيدة العظيمة كانت وراء إقدام المسلمين على خوض الأهوال ومقارعة الأبطال ، لأن الإقدام على

الخطر لا يقدم الأجل ، والإحجام عنه لا يؤخره عن مواعده المحدد ، وإذا كان ملك الصين قد فهم هذا المعنى فإنه مما يثير مخاوفه لأن هذا الاعتقاد مرعب للكفار ، حيث إنهم حينما يقاتلون المسلمين فإنما يقاتلون قوما لا يهابون الموت ، والذي يقدم على قتال خصمه وهو يحمل هذا الشعور لا يمكن أن يقف أمامه أحد .

نبذة عن حياة قتيبة ونهايته :

يجدر بنا أن نذكر شيئاً من فضائل قتيبة بن مسلم الباهلي وتاريخ حياة هذا القائد العظيم ، فهو الذي نقل الإسلام ورسخ دعائم الدولة الإسلامية في بلاد ما وراء النهر التي تمتد من بحر قزوين غرباً حتى حدود الصين شرقاً .

هذا القائد كان نبوغه مبكراً حين كان في العراق ، ولما يتجاوز الثلاثين من عمره ، وقد ظهر نبوغه حينما اعترض على الحجاج ، وقد استشار الناس في شبيب الخارجي الذي أعياه قتاله ، فلم يتكلم إلا قتيبة ، فقال للحجاج : إنك لم تنصح لله ولا لأمير المؤمنين في قتالهم ، فغضب الحجاج ، ولكنه كان في وضع يحتاج فيه إلى الناس لشدة هجوم الخوارج فقال له : وكيف ذاك ؟ قال : تبعث الرجل الشريف وتبعث معه رعايا من الناس فينهزمون عنه ويستحي فيقاتل حتى يقتل ، قال : فما الرأي ؟ قال : أن تخرج بنفسك ويخرج معك نظراؤك فيواسونك بأنفسهم ، وعمل الحجاج بمشورته وخرج لهم فكانت هزيمتهم (١) .

(١) تاريخ الطبري ٦/ ٢٧٣ .

ولقد أفاد الحجاج من هذه المشورة في قتال ابن الأشعث حيث خرج له بنفسه وقاد المعارك الأخيرة الحاسمة .

ومازال قتيبة محل إعجاب الحجاج حتى ولاه على بلاد « الرى » واستعان به في القضاء على فتنة ابن الأشعث ، ثم ولاه خراسان ، فانطلق منها لفتح بلاد ماوراء النهر ، واستغرق فتحها عشر سنوات من سنة ست وثمانين حتى سنة ست وتسعين .

هذا وإن كان قتيبة رجلاً ذا مواهب عالية من الشجاعة والمقدرة الإدارية والحربية فإنه يؤخذ عليه إهماله مبدأ الشورى في كثير من أموره ، ولئن كان قد سلم من كثير من المشكلات الناجمة عن القرار المنفرد لتوفيق الله له أولاً ثم لما يتمتع به من طاقة فكرية عالية وخبرة حربية واسعة فإن إهمال الشورى قد جر عليه مشكلة قضت على حياته وحياة إخوانه ، وذلك حينما بادر من غير مشورة فخلع الخليفة سليمان بن عبد الملك ، ثم قام خطيباً فعاب جميع القبائل الذين كانوا معه أشد العيب ، فكان نتيجة ذلك أن غضبت القبائل فوّلوا عليهم وكيع بن أبي أسود التميمي ، وثاروا على قتيبة فقتلوا إخوانه ثم قتلوه وكانت نهاية مؤلمة لهذا البطل الفاتح (١) .



(١) انظر تفاصيل ذلك في تاريخ الطبري ٥٠٦/٦ - ٥١٦ ، الكامل / ١٣٨/٤ ، البداية والنهاية ١٧٤/٩ .

٣ - فتوحات يزيد بن المهلب -

لما ولي الخلافة أمير المؤمنين سليمان بن عبد الملك ولي على خراسان يزيد بن المهلب بن أبي صفرة وذلك في عام سبعة وتسعين^(١).

فتح جرجان :

قال الإمام ابن جرير الطبري : وفي هذه السنة - يعني سنة ثمان وتسعين - غزا يزيد بن المهلب جرجان وطبرستان .

ثم ذكر الإمام الطبري أن أمير المؤمنين سليمان بن عبد الملك لما ولي يزيد بن المهلب على خراسان كان أهم شيء عنده أن يفتح جرجان وطبرستان^(٢) لأن هذين الإقليمين كانا على طريق خراسان ، وقد تحول الطريق من فارس وكرمان ، لعدم وجود الأمان للمسلمين في جرجان وطبرستان .

وكان يحكم جرجان عدد من الأمراء منهم صول التركي وفيروز ابن قول ، وكان بينهما نزاع وقتال ، فذهب فيروز إلى يزيد بن المهلب يستنصر به فأغار صول على إمارته وأخذها ، فلما قدم فيروز على يزيد بن المهلب قال له يزيد : ما أقدمك ؟ قال : خفت صولاً فهربت منه ، قال له يزيد : هل من حيلة لقتاله ؟ قال : نعم ، شيء واحد إن ظفرت به قتلته أو استسلم لك ، قال : ماهو ؟ قال إن خرج من

(١) تاريخ الطبري ٦ / ٥٢٣ .

(٢) موقع الإقليمين في شمال إيران واسمهما الآن مارندران - معجم أماكن الفتوح -

جرجان حتى ينزل البحيرة (١) ثم أتته فحاصرتها بها ظفرت به ، فاكتب إلى الإصبيذ (٢) كتابا تسأله فيه أن يحتال على « صول » حتى يقيم بجرجان ، واجعل له على ذلك جُعلًا ومَنَّةً ، فإنه يبعث بكتابك إلى صول يتقرب به إليه لأنه يعظمه ، فيتحول عن جرجان فينزل البحيرة .

فكتب يزيد بن المهلب إلى صاحب طبرستان : إني أريد أن أغزو « صولا » وهو بجرجان ، فخفت إن بلغه أنني أريد ذلك أن يتحول إلى البحيرة فينزلها ، فإن تحول إليها لم أقدر عليه ، وهو يسمع منك ويستنصحك ، فإن حبسته العام بجرجان فلم يأت البحيرة حملت إليك خمسين ألف مثقال ، فاحتل له حيلة تحبسه بجرجان ، فإنه إن أقام بها ظفرت به ، فلما رأى الإصبيذ الكتاب أراد أن يتقرب إلى « صول » فبعث بالكتاب إليه ، فلما أتاه الكتاب أمر بالرحيل إلى البحيرة ، وحمل الأطعمة ليتحصن بها .

وبلغ يزيد أنه قد سار من جرجان إلى البحيرة ، فاعتزم على السير إلى جرجان ، فخرج في ثلاثين ألفا ، وأقبل حتى أتى جرجان فدخلها بدون مقاومة تذكر ، ثم سار إلى البحيرة فحاصرها ، فكان يخرج إليه صول في الأيام القليلة فيقاتله ثم يرجع إلى حصنه ، فمكث الترك محصورين ستة أشهر ، حتى شربوا الماء المالح فأصيبوا بداء السَّوَاد ، فوقع فيهم الموت ، وأرسل صول في ذلك يطلب الصلح ،

(١) هي جزيرة في البحر بينها وبين دهستان خمسة فراسخ وهما من جرجان مما يلي

خوارزم .

(٢) هو حاكم طبرستان .

فقال يزيد بن المهلب : لا ، إلا أن ينزل على حكمي ، فأبى ، فأرسل إليه : إني أصالحك على نفسي ومالي وثلاثمائة من أهل بيتي وخاصتي ، على أن تؤمنني فتنزل البحيرة ، فأجابه يزيد ، فخرج بماله وثلاثمائة ممن أحب ، فاستولى المسلمون على الجزيرة ، وقتل يزيد بعض من فيها من المقاتلة (١) .

فهذا الخبر فيه مواقف جهادية عالية ، منها :

١ - اهتمام يزيد بن المهلب بغزو بلاد جرجان وطبرستان ، وكانت هذه البلاد لوعورة أرضها وصعوبة مسالكها تصدُّ الغزاة من المسلمين ، وقد ذكر الإمام الطبري أن مصقلة بن هبيرة بن شبل الثعلبي الشيباني غزا جرجان في عهد معاوية رضي الله عنه في عشرة آلاف مجاهد فأصيب هو وجنده بالرويان ، وهي متاخمة لطبرستان ، فهلكوا في واد من أوديتها ، أخذ عليهم العدو بمضايقه فقتلوا جميعاً ، فهو يسمى وادي مصقلة ، ولشهرة خبره كان يضرب به المثل : « حتى يرجع مصقلة من طبرستان » (٢) . فكان لما أصاب المسلمين في تلك الغزوة ولغيرها أثر على قادة المسلمين وجنودهم .

وقد جرى التوسع في الفتوحات شرقاً حتى بلغ المسلمون في فتوحاتهم بلاد الصين ، بينما كانت بلاد جرجان وطبرستان دون خراسان ، ومع ذلك تركها المسلمون ، فكان اهتمام يزيد بن المهلب بغزو هذه البلاد أمراً يذكر له .

(١) تاريخ الطبري ٥٣٥/٦ - ٥٣٨ .

(٢) تاريخ الطبري ٥٣٥/٦ - ٥٣٦ .

وقد جاء في رواية للطبري أن سليمان بن عبد الملك كان كلما افتتح قتيبة فتحاً قال ليزيد بن المهلب : أما ترى ما يصنع الله على يدي قتيبة ؟ فيقول ابن المهلب : ما فعلت جرجان التي حالت بين الناس والطريق الأعظم وأفسدت قومس وأبهرشهر !؟^(١) وهذا يبين بأن ابن المهلب قد اهتم بفتح هذه البلاد قبل أن يكون أميراً على خراسان .

٢ - وفي هذا الخبر نماذج من التدابير الحربية الجيدة، فمن ذلك ماجرى من يزيد بن المهلب في كتابه إلى «صول» حاكم جرجان، حيث أخرجه بمكيذة ناجحة من مَتَمَّع بلاده بجرجان إلى الجزيرة التي لا يستطيع أن يقاوم فيها طويلاً، فاستطاع يزيد أن يأخذ جرجان بدون مقاومة تذكر، لأن أغلب جيوشها تحولت إلى الجزيرة التي تحصن بها أميرها «صول» ، ثم حاصروهم فيها حتى استسلم أميرهم .

ومن المواقف المذكورة في هذه الغزوة ما ذكر الإمام أبو جعفر الطبري من خبر أبي محمد الثقفي قال : أصاب يزيد بن المهلب تاجاً بجرجان فيه جوهر ، فقال : أترون أحداً يزهد في هذا التاج ؟ قالوا : لا ، فدعا محمد بن واسع الأزدي فقال : خذ هذا التاج فهو لك ، قال : لا حاجة لي فيه ، قال : عزمت عليك ، فأخذه ، وخرج فأمر يزيد رجلاً ينظر ما يصنع به ، فلقى سائلاً فدفعه إليه ، فأخذ الرجل السائل فأتى به يزيد وأخبره الخبر ، فأخذ يزيد التاج وعوض السائل مالا كثيراً^(٢) .

١- (١) تاريخ الطبري ٥٣٩/٦ .

٢- (٢) تاريخ الطبري ٥٣٩/٦ .

وهكذا كانت شهرة هذا الإمام الزاهد العابد في الزهد والعفة والورع قد وصلت إلى القادة والأمراء ، فكان يزيد بن المهلب يعلم أن محمد بن واسع سيزهد في ذلك التاج ، فأراد أن يظهر للناس نموذجاً من البشر قد سمت نفوسهم وعلت طموحاتهم ، فتجاوزت مايتنافس الناس عليه من متاع الدنيا ، وحلقت إلى نعيم الآخرة الخالد ، فأصبح الجوهر النفيس عندهم يعادل أدنى عملة يمكن أن تقدم لسائل بائس .

لقد كان يزيد بن المهلب وأمثاله من العقلاء يدركون المستوى الرفيع الذي بلغه محمد بن واسع وأمثاله ، ولكنهم لا يستطيعون بلوغ ذلك المستوى ، لأن نفوسهم لم تتجرد بعد من حب المال والجاه ، ولأنهم لم تتمثل في أفكارهم عظمة الجنة ودرجاتها المتفاوتة في السمو والنعيم ، ولكن وضع يزيد مع ذلك أفضل بكثير من الذين لم يدركوا مخيلتهم أن أحداً من الناس يزهد في متاع الدنيا .

فتح طبرستان :

ذكر الإمام أبو جعفر محمد بن جرير الطبري عن عدد من الشيوخ أن يزيد بن المهلب لما صالح حاكم جرجان رغب في فتح طبرستان ، فلما عزم على المسير إليها ولَّى عبد الله بن المعمر اليشكري على يساسان ودهستان ، وخلف معه أربعة آلاف ، ثم أقبل إلى أدنى جرجان مما يلي طبرستان ، واستعمل على أندريستان أسد بن عمرو - أو ابن عبد الله بن الربعة - وهي مما يلي طبرستان ، وخلفه في أربعة آلاف ، ودخل يزيد طبرستان ، فأرسل إليه حاكمها

الأصبهذ يسأله الصلح وأن يخرج من طبرستان فأبى يزيد ورجا أن يفتحها وأقام معسكراً هناك .

ووجه يزيد ابنه أبا عيينة في جيش لقتال الأعداء ، وكان حاكم طبرستان قد استنجد بأهل جيلان وأهل الديلم ، فالتقوا مع المسلمين في سفح جبل فانهزم المشركون وتبعهم المسلمون حتى انتهوا إلى فم الشعب فدخله المسلمون ، فرماهم المشركون من فوق الجبل فانهزم أبو عيينة والمسلمون ورجعوا إلى معسكر يزيد ، ولم يتبعهم المشركون خوفاً من هجوم جيش المسلمين عليهم .

وكتب الإصبهذ حاكم طبرستان إلى المرزبان ابن عم فيروز بن قول وهو بأقصى جرجان مما يلي اليباسان : إنا قد قتلنا يزيد وأصحابه فاقتل من في اليباسان من العرب ، فخرج بجيشه إلى أهل اليباسان والمسلمون آمنون في منازلهم ، فقتلوا المسلمين جميعاً وكانوا أربعة آلاف بقيادة عبد الله بن المعمر .

وبلغ يزيد والمسلمين ذلك فهالهم وأعظموا ذلك وبلغهم أن المرزبان كتب إلى الإصبهذ ليسد المنافذ على المسلمين ، وهذا يعني أن المسلمين قد وقعوا بين جيشين للأعداء ، ففزع يزيد إلى حيان النبطي^(١) وقال له : لا يمنعك ما كان مني إليك من نصيحة المسلمين ، قد جاءنا عن جرجان ما جاءنا ، وقد أخذ هذا بالطرق فاعمل في الصلح ، قال : نعم ، فأتى حيان الإصبهذ فقال : أنا رجل منكم ، وإن كان الدين قد

(١) هو من العجم وقد كان دخل في الإسلام وحسن إسلامه وتولى بعض الأعمال ، وقد كان يزيد غرمه ماتت ألف بسبب إهانة وقعت منه لمخلد بن يزيد .

فرق بيني وبينكم فإنني لكم ناصح ، وأنت أحب إلي من يزيد ، وقد بعث يستمد ، وأمداده قريبة ، وإنما أصابوا منه طرفا ، ولست آمن أن يأتيك ما لا تقوم له ، فأرح نفسك منه وصالحه ، فإنك إن صالحته صير حده على أهل جرجان بغدرهم وقتلهم من قتلوا ، فصالحه على مبلغ كبير من المال ، وقد أرسل إليهم يزيد ذلك المال الذي صالحهم عليه حيّان النبطي (١) .

وهذا الذي قام به يزيد بن المهلب من مصالحة حاكم طبرستان يعتبر من التدابير الحربية الناجحة ، وهذا الصلح وإن كان ظاهره ذلة للمسلمين ، حيث سيدفعون لذلك الحاكم مبلغا كبيرا من المال إلا أنه في الحقيقة نوع من الخداع الحربي ، حيث أراد يزيد أن يتقي بذلك شر أحد الجيشين ليتفرغ للجيش الآخر ، فإذا تم القضاء عليه رجع للجيش الذي صالحه في الوقت المناسب .

فتح جرجان مرة أخرى :

وقد ذكر الإمام الطبري فيما يرويه عن شيوخه أن يزيد بن المهلب لما صالح أهل طبرستان قصد لجرجان ، فلما بلغ المربان حاكم جرجان أن يزيد قد صالح حاكم طبرستان جمع أصحابه وأتى مدينة « وجاء » فتحصن فيها ، وأقبل يزيد حتى نزل عليها وحولها أشجار كثيفة ولا يعرف لها إلا طريق واحد ، فأقام محاصرا لها سبعة أشهر لا يقدر منهم على شيء ، وكانوا يخرجون في بعض الأيام فيقاتلونهم ويرجعون إلى حصنهم .

(١) تاريخ الطبري ٥٣٩/٦ - ٥٤١ باختصار .

وفي يوم من الأيام خرج رجل من جيش يزيد من قبيلة طيء يتصيد^(١) ، فأبصر وعلاً يرقى في الجبل فاتبعه ، وقال لمن معه : قفوا مكانكم ، وصعد في الجبل يقتص أثر الوعل ، فما شعر بشيء حتى أطل على عسكر الأعداء ، فرجع يريد أصحابه فخاف أن لايهتدي لتلك الشجرة إذا أراد العودة فجعل يُقطع قباءه ويعقد على الشجر علامات ، حتى وصل إلى أصحابه ، ثم رجع إلى العسكر فأتى إلى عامر بن أينم الواشجي صاحب شرطة يزيد ، فرفع ذلك إلى ابني زُحر بن قيس فأدخلاه على يزيد ، فقال له : أتريد أن تدخل «وجاه» بغير قتال ؟ قال : نعم ، فأعلمه بذلك الطريق الجبلي المطل على الأعداء ، فندب الناس فانتدب له ألف وأربعمائة ، فقال ذلك الرجل : الطريق لايحمل هذه الجماعة لكثرة الأشجار فيه ، فاختر يزيد منهم ثلاثمائة فوجههم معه وأمر عليهم أحد قادته وقال له : إن غلبت على الحياة فلا تُغلبن على الموت ، وإياك أن أراك عندي منهزماً ، وقال للرجل الذي أعلمه بذلك : متى تصل إليهم ؟ قال : غداً عند العصر فيما بين الصلاتين ، قال : امضوا على بركة الله فإني سأجهد على مناهضتهم غداً عند صلاة الظهر .

فساروا ، فلما قارب انتصاف النهار من غد أمر يزيد الناس أن يشعلوا النار في حطب كان قد جمعه في حصاره إياهم ، فصيره أكاماً ، فأضرموه ناراً ، فلم تزل الشمس حتى صار حول عسكره أمثال

(١) وقيل إنه الهياج بن عبد الرحمن الأزدي من أهل طوس .

الجبـال من النيران ، ونظر العدو إلى النار فهالهم مارأوا من كثرتها
فخرجوا إليهم ، وأمر يزيد الناس حين زالت الشمس فصلّوا وجمعوا
بين الصلاتين ، ثم زحفوا إليهم فاقتتلوا .

وسار أصحاب تلك السرية بقية يومهم والغد ، فهجموا على
عسكر الترك قبيل العصر وهم آمنون من ذلك الوجه ، ويزيد
والمسلمون يقاتلونهم من الوجه الآخر ، فما شعر الأعداء إلا بالتكبير
من ورائهم ففروا جميعاً إلى حصنهم ، وركبهم المسلمون فأعطوا
بأيديهم ونزلوا على حكم يزيد فسبى ذراريهم وقتل مقاتلتهم ، ثم
رجع إلى خراسان ، وأمر على جرجان جهم بن زحر الجعفي (١) .

وهكذا نجح المسلمون في فتح إقليم جرجان ولقد كان من مظاهر
توفيق الله تعالى ونصره لذلك الجيش أن ألهم ذلك الرجل الصياد إلى
صعود ذلك الجبل الشاهق الوعر المكتظ بالأشجار ليطل على الأعداء
فيكتشف عورة لهم ، ثم يكون الفتح ونصر المسلمين من ذلك
الطريق ، ولقد كان ذلك الصياد عالي الهمة حينما حمل على عاتقه
مسئولية كشف ذلك الطريق الذي كان به فرج المسلمين ، كما كان
يزيد بن المهلب قائداً بارعاً حينما اغتتم تلك الفرصة فخطط للقضاء
على الأعداء بإرباكهم من خلفهم والهجوم عليهم من أمامهم في وقت
واحد .

وإن مما ينبغي الإشادة به موقف تلك السرية التي لا يتجاوز عدد
أفرادها ثلاثمائة ، حيث غامر أفرادها بالسير في تلك المجاهل ، ثم

(١) تاريخ الطبري ٥٤١/٦ - ٥٤٣ .

بالهجوم على جيش قوي كثيف من الخلف، إذ أن هناك احتمال أن
ينعطف عليهم ذلك الجيش فييدهم ، فهذا مثل من شجاعة المسلمين
العالية ومسارعتهم إلى البذل والتضحية .

* * *

٤ - جهاد بعض القادة في أواخر عهد بني أمية

جهاد المسيب بن بشر الرياحي :

ذكر الإمام الطبري أن خاقان ملك الترك جمعهم ووجههم إلى السُغد ، فكان على الترك كورصول ، وأقبلوا حتى نزلوا قصر الباهلي .

قال : وقال بعضهم : أراد عظيمٌ من عظماء الدّهاقين أن يتزوج امرأة من باهلة ، وكانت في ذلك القصر ، فأرسل إليها يخطبها . فأبت ، فاستجاش ورجا أن يسبوا من في ذلك القصر ، فيأخذ المرأة ، فأقبل كورصول حتى حصر أهل القصر ، وفيه مائة أهل بيت بذراريهم ، وعلى سمرقند عثمان بن عبد الله بن مطرف وخافوا أن يبطئ عنهم المدد ، فصالحوا الترك على أربعين ألفاً ، و أعطوهم سبعة عشر رجلاً رهينة ، وندب عثمان بن عبد الله الناس ، فانتدب المسيب ابن بشر الرياحي وانتدب معه أربعة آلاف من جميع القبائل ، فقال شعبة بن ظهير : لو كان ها هنا خيول خراسان ماوصلوا إلى غايتهم .

ثم ذكر بعض أسماء من انتدب للقتال من الأبطال إلى أن قال : فقال المسيب بن بشر لما عسكروا : إنكم تقدمون على حلبة الترك ، حلبة خاقان وغيرهم ، والعوض إن صبرتم الجنة ، والعقاب النار إن فررتم ، فمن أراد الغزو والصبر فليقدم .

فانصرف عنه ألف وثلثمائة ، وسار في الباقيين ، فلما سار فرسخاً قال للناس مثل مقالته الأولى ، فاعتزل ألف ، ثم سار فرسخاً آخر فقال لهم مثل ذلك ، فاعتزل ألف . ثم سار - وكان دليلهم

الأشهب بن عبيد الحنظليّ - حتى إذا كان على فرسخين من القوم نزل فأتاهم ترك خاقان ملك قبيّ فقال : إنه لم يبقَ هاهنا دهقان إلا وقد بايع الترك غيري ، وأنا في ثلثمائة مقاتل فهم معك ، وعندني الخبر ، قد كانوا صالحوهم على أربعين ألفاً ، فأعطوهم سبعة عشر رجلاً ، ليكونوا رهنًا في أيديهم حتى يأخذوا صلحهم ، فلما بلغهم مسيركم إليهم قتل الترك مَنْ كان في أيديهم من الرهائن .

قال : وكان فيهم نهشل بن يزيد الباهليّ فنجا لم يقتل ، والأشهب بن عبيد الله الحنظليّ ، وميعادهم أن يقاتلوهم غدًا أو يفتحوا القصر ، فبعث المسيّب رجلين : رجلاً من العرب ورجلاً من العجم من ليلته على خيولهم ، وقال لهم : إذا قرّبتم فشدُّوا دوابكم بالشَّجَر ، واعلموا علم القوم . فأقبلوا في ليلة مظلمة ، وقد أجزت الترك الماء في نواحي القصر ، فليس يصل إليه أحدٌ ، ودنوا من القصر ، فصاح بهما الريثة ، فقالا : لاتصح وادعُ لنا عبد الملك بن دثار ، فدعاه فقالا له : أرسلنا المسيّب ، وقد أتاكم الغياث ، قال : أين هو ؟ قال : على فرسخين ، فهل عندكم امتناع ليلتك وغدًا؟ فقال : قد أجمعنا على تسليم نساتنا وتقديمهم للموت أمامنا ، حتى نموت جميعاً غدًا . فرجعا إلى المسيّب ، فأخبراه فقال المسيّب للذين معه : إني سائر إلى هذا العدو ، فمن أحب أن يذهب فليذهب ، فلم يفارقه أحدٌ ، وبايعوه على الموت .

فسار وقد زاد الماء الذي أجروه حول المدينة تحصينًا ، فلما كان بينه وبينهم نصف فرسخ نزل ، فأجمع على بيّاتهم ، فلما أمسى أمر

الناس فشدوا على خيولهم ، وركب فحثهم على الصبر ، ورغبهم فيما يصير إليه أهل الاحتساب والصبر ، ومالهم في الدنيا من الشرف والغنيمة إن ظفروا ، وقال لهم : اكمموا دوابكم^(١) وقودوها ، فإذا دنوتم من القوم فاركبوها ، وشدوا شدة صادقة وكبروا ، وليكن شعاركم : يامحمد^(٢) ، ولاتتبعوا مؤلّيا ، وعليكم بالدواب فاعقروها ، فإن الدواب إذا عُقرت كانت أشدّ عليهم منكم ، والقليل الصابر خير من الكثير الفشل ، وليست بكم قلة ، فإن سبعمائة سيف لا يضرب بها في عسكر إلا أوهنوه وإن كثر أهله .

قال : وعبّاهم وجعل على الميمنة كثير بن الدبوسي ، وعلى اليسرة رجلا من ربيعة يقال له ثابت قُطنة ، وساروا حتى إذا كانوا منهم على غلوتين كبروا وذلك في السحر ، وثار الترك ، وخالط المسلمون العسكر ، فعقروا الدواب ، وصابروهم الترك ، فجال المسلمون وانهزموا حتى صاروا إلى المسيب ، وتبعهم الترك وضربوا عجز دابة المسيب فترجل رجال من المسلمين ، فيهم البختري أبو عبدالله المرائي ، ومحمد بن قيس الغنوي - ويقال : محمد بن قيس العنبري - وزياد الأصبهاني ، ومعاوية بن الحجاج ، وثابت قطنة . فقاتل البختري فقطعت يمينه ، فأخذ السيف بشماله فقطعت ، فجعل يذب بيديه حتى استشهد . واستشهد أيضا محمد بن قيس العنبري أو الغنوي وشبيب بن الحجاج الطائي .

(١) أي اربطوا أفواهها ، وذلك أقوى لها على تحمل الشدة والعطش .

(٢) هذا ليس من الاستغاثاة لأن الاستغاثاة بغير الله تعالى لم تكن معروفة عند التابعين لوضوح كونها من الشرك ، وإنما هو مجرد شعار يتعارفون به كما جاء في الخبر .

قال : ثم انهزم المشركون ، وضرب ثابت قُطْنة عظيمًا من عظمائهم ، فقتله ، ونادى منادي المسيّب ، لا تتبعوهم ، فإنهم لا يدرون من الرّعب ، اتبعتموهم أم لا ! و اقصدوا القَصْر ، ولا تحملوا شيئًا من المتاع إلا المال ولا تحملوا من يقدر على المشي .

وقال المسيّب : مَنْ حمل امرأة أو صبيًا أو ضعيفًا حَسْبُهُ فَأَجْرُهُ على الله ، وَمَنْ أبى فله أربعون درهمًا ، وإن كان في القصر أحدٌ من أهل عَهْدِكُمْ فاحملوه . قال : فقصدوا جميعًا القَصْر ، فحملوا من كان فيه ، وانتهى رجلٌ من بني فُقيّم إلى امرأة ، فقالت : أغشني أغاثك الله ! فوقف وقال : دونك وعجز الفرس ، فوثبت فإذا هي على عَجْزِ الفرس ، فإذا هي أفرسٌ من رجل ، فتناول الفقيمي بيد ابنها ، غلامًا صغيرًا ، فوضعه بين يديه ، وأتوا ترك خاقان ، فأنزلهم قصره وأناهم بطعام . وقال : الحقوا بسمرقند ، لا يرجعوا في آثاركم . فخرجوا نحو سمرقند ، فقال لهم : هل بقي أحد ؟ قالوا : هلال الحريريّ ، قال : لا أسلمه ، فأتاه وبه بضع وثلاثون جراحة ، فاحتمله ، فبرأ ، ثم أصيب يوم الشعب مع الجنيد .

قال : فرجع الترك من الغد ، فلم يروا في القصر أحدًا ، ورأوا قتلاهم ، فقالوا : لم يكن الذين جاءوا من الإنس ، فقال ثابت قطنة :

فَدَتْ نَفْسِي فَوَارِسَ مِنْ تَمِيمٍ	غَدَاةَ الرُّوعِ فِي ضَنْكَ الْمَقَامِ
فَدَتِ نَفْسِي فَوَارِسَ أَكْتَفُونِي	عَلَى الْأَعْدَاءِ فِي رَهَجِ الْقَتَامِ
بِقَصْرِ الْبَاهِلِيِّ وَقَدْ رَأُونِي	أَحَامِي حَيْثُ ضَنَّ بِهِ الْمُحَامِي
بَسِيفِي بَعْدَ حَطَمِ الرُّمَحِ قُدَمًا	أَذُوْدُهُمْ بِذِي شُطْبِ جُسَامِ

أَكْرُ عَلَيْهِمُ الْيَحْمُومَ كَرًّا كَكَرَّ الشَّرْبِ آنِيَةَ الْمُدَامِ
أَكْرُ بِهِ لَدَى الْغَمَرَاتِ حَتَّى تَجَلَّتْ لَا يَضِيقُ بِهَا مَقَامِي
فَلَوْلَا اللَّهُ لَيْسَ لَهُ شَرِيكٌ وَضَرَبِي قَوْنَسَ الْمَلِكِ الْهَمَامِ
إِذَا لَسَعَتْ نَسَاءُ بَنِي دِثَارٍ أَمَامَ التَّرِكَ بَادِيَةَ الْخِدَامِ !
فَمَنْ مِثْلُ الْمَسِيبِ فِي تَيْمٍ أَبِي بِشْرِ كَقَادِمَةِ الْحَمَامِ (١)

ففي هذا الخبر مثل جليل لما يصنعه الصبر والثبات وسمو الأهداف ، فهؤلاء الذين لم يتجاوزوا سبعمائة قد انتصروا على جيش كبير يبلغ أضعافهم ، وليس كل السبعمائة ثبتوا ، بل فرَّ أكثرهم لضراوة القتال وهول الصدام ، ولم يثبت مع قائدهم المسيب بن بشر الرياحي إلا القليل ، وبهؤلاء الذين ثبتوا حُسمت المعركة وتنزَّل نصر الله تعالى .

إن هؤلاء الأبطال الأشاوس أشبه شيء بالصخور الصلبة التي تتحطم أمام شموخها وعلائها أمواج الطوفان الهادر . . إنه طوفان مدمر يهدم البيوت ويقتلع الأشجار ، ويغير معالم الأرض ، ولكنه يتفرق ويتشتت أمام صلابة الصخور ورسوخها .

لقد كان المسيب بن بشر رجلاً عظيماً حينما استصفى أصحابه ومحصلهم فلم يقبل أن يتبعه إلا عُشَّاق الموت وطلاب الآخرة ، لأن هؤلاء الأفاذا هم الذين تتبدل بهم الموازين ، وتتقرر بهم مصائر الأمم .
ونزل نصر الله تعالى على هذه الفئة القليلة الثابتة ، وانقذوا من في ذلك القصر من المسلمين المحصورين ، وأصيب الأعداء بالذهول

(١) تاريخ الطبري ٦/٦٠٨ - ٦١١ ، وانظر البداية والنهاية ٩/ ٢٣٠ .

والخيرة مما حدث ، لأنه مما يشبه خوارق العادات ، وكذبوا أعينهم التي صوّرت لهم أولئك الأبطال بأنهم من البشر ، وغلبوا ماتخيلته عقولهم الحائرة من أن الذين لقوهم كانوا من الجن .

جِهَادُ الْجُنَيْدِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْمُرِّي :

روى الإمام الطبري عن شيوخه من خبر غزو الجُنَيْدِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْمُرِّي أمير خراسان وبلاد ماوراء النهر : أنه خرج غازياً في سنة اثنتي عشرة ومائة يريد طخارستان فنزل على نهر بلخ ، ووجهَ عَمارة بن حُرَيْم إلى طخارستان في ثمانية عشر ألفاً وإبراهيم بن بَسَّام الليثي في عشرة آلاف في وجه آخر ، وجاشت الترك فأتوا سمرقند وعليها سَوْرَةٌ بن الحرّ أحدُ بني أبان بن دارم ، فكتب سورة إلى الجُنَيْدِ : إن خاقان جاش بالترك فخرجتُ إليهم فما قدرت أن أمنع حائط سمرقند ، فالغوث .

فأمر الجُنَيْدِ الناس بالعبور ^(١) فقام إليه المَجَشَّرُ بن مزاحم السُّلَمي وابن بسطام الأزدي وابن صبح الخَرَقِي فقالوا : إن الترك ليسوا كغيرهم لا يَلْقَوْنَكَ صفّاً ولا زحفاً ^(٢) وقد فرقتُ جندك ، فمُسِلِمُ بن عبد الرحمن النيروز والبختري بهراة ، ولم يحضرَك أهل الطالقان ، وعمارة بن حُرَيْم غائب ^(٣) وقال له المَجَشَّرُ : إن صاحب خراسان لا يعبر النهر في أقل من خمسين ألفاً ^(٤) ، فاكتب إلى عمارة فليأتك

(١) يعني بعبور نهر جيحون الذي يفصل خراسان عن بلاد ماوراء النهر .

(٢) يعني أنهم يقومون بالغارات المفاجئة .

(٣) يعني بطخارستان .

(٤) يعني من كان أميراً على خراسان قبل الجُنَيْدِ لأن الجُنَيْدِ حديثُ عهد بالولاية .

وأْمَهْل ولا تَعْجَل ، قال : فكيف بسورة ومن معه من المسلمين ! لو لم أكن إلا في بني مرة (١) أو من طلع معي من الشام لعبرت ، وقال :
أليس أحق الناس أن يشهد الوغى

وأن يقتل الأبطال ضخم على ضخم

وقال :

مَاعَلَّتِي مَاعَلَّتِي مَا عَلَّتِي إِنْ لَمْ أَقَاتِلْهُمْ فَجُزُوا لِمَتِّي
قال : وعبر فتزل « كِسَّ » وقد بعث الأشهب بن عبيد الحنظلي
ليعلم علم القوم ، فرجع إليه وقال : قد أتوك فتأهب إلى المسير .

وهنا نقف قليلا لتأمل هذا المشهد الذي برزت فيه شجاعة
الشجعان في مقابل رأي أهل الرأي ، فالتأمل يرى في كلام الأمير
الجنيد وعزمه وتصميمه على مواجهة جيش الترك مواقف عالية في
الشجاعة والشهامة والرحمة بإخوانه المسلمين المحاصرين بسمرقند
والعزم الأكيد على حمايتهم وإنقاذهم مهما كلفه ذلك وجيشه من
متاعب .

لكن رأي أهل الرأي له وزنه الكبير في تقدير ذلك الموقف لأن
المُجَسَّرَ السُّلْمِي وأصحابه أهل خبرة طويلة بقتال الترك بينما الجنيد
حديث عهد بذلك .

ومع كون الجنيد لم يقبل برأيهم فإنهم قد أطاعوه وعبروا النهر
معه ولم يخذلوه مع غلبة ظنهم بأن الترك سيقطعون وجيشه وستكون

(١) يعني أفراد قبيلته .

عليه هزيمة ونكبة كبيرة ، وهذا موقف يُذكر لهم في طاعة القائد .
قال : وبلغ الترك (١) فعوروا الآبار (٢) التي في طريق «كس»
ومافيهـا من الركايا (٣) ، فقال الجنيد : أيُّ الطريقين إلى « سمرقند»
أمثل؟ قالوا: طريق المحترقة ، فقال المجشّر بن مزاحم السلمي : القتل
بالسيف أمثل من القتل بالنار ، إن طريق المحترقة فيه الشجر والحشيش
ولم يُزرع منذ سنين فقد تراكم بعضه على بعض ، فإن لقيت خاقان
أحرق ذلك كله فقتلنا بالنار والدخان ، ولكن خذ طريق العقبة فهو
بيننا وبينهم سواء .

فأخذ الجنيد طريق العقبة . إلى أن قال : ومضى بالناس حتى دخل
الشعب وبينه وبين مدينة سمرقند أربعة فراسخ ، فصبّحه خاقان في جمع
عظيم ، وزحف إليه أهل السغد والشاش وفرغانة وطائفة من الترك .
قال : فحمل خاقان على المقدمة وعليها عثمان بن عبد الله بن
الشخير ، فرجعوا إلى العسكر وترك تتبعهم ، وجاؤوهم من كل
وجه . . إلى أن ذكر أن العدو قصد للميمنة وفيها تميم والأزد في
موضع واسع فيه مجال للخيـل .

قال : وصبر الناس يقاتلون حتى أعيوا ، فكانت السيوف
لأتحيك ولانقطع شيئاً ، فقطع عبيدهم الخشب يقاتلون به ، حتى ملَّ
الفريقان ، فكانت المعانقة فتحاجزوا .

(١) أي بلغهم عبور المسلمين إليهم النهر .

(٢) أي دفنوها حتى لا يستفيد منها المسلمون .

(٣) أي منابع الماء .

وذكر أنه استشهد في ذلك اليوم مئات من المسلمين ، وذكر أسماء عدد من أبطالهم (١) .

وهكذا انتهت هذه المعركة الهائلة التي قابل فيها المسلمون أضعافهم من الكفار بالتحاجز بين الطرفين ، وهذا يعني عدم انتصار أيٍّ من الفريقين على الآخر ، وهذا مثال على شجاعة المسلمين وثباتهم وصبرهم .

وماجاء في الرواية من قول الراوي « فكانت السيوف لاثميك ولا تقطع شيئاً » دليل على الجهد الكبير الذي بذله المسلمون في القتال ، حيث كلَّت السيوف ودثرت من كثرة الضرب بها .

إن من أبرز ما خلَّده المسلمون من عظمة في هذه المعركة غير المتكافئة أنه لم يُذكر أن الأعداء أسروا أحداً من المسلمين ولا أن أحداً منهم قُرب من المعركة ، وهذا الثبات العظيم هو الذي أذهل الأعداء فقررروا إنهاء المعركة مع ما كانوا يتوقعونه في البداية من المقدرة على سحق المسلمين وإبادتهم ، لقتلهم الظاهرة أمام كثرة أعدائهم .

ونظراً لأن هذه المعركة تمت في أحد شعاب تلك المنطقة فقد اشتهرت بعد ذلك بيوم الشَّعب .

ومن المواقف التي ينبغي الإشارة بها في هذه المعركة ما ذكره الإمام الطبري في سياق روايته من مواقف بعض الشهداء ، ومن ذلك ما ذكره عن يزيد بن الفضل الحُدَّاني أنه حمل يوم الشَّعب على مائة بغير سويقاً للمسلمين ، فجعل يسأل عن الناس ، ولا يسأل عن أحد إلا

(١) تاريخ الطبري ٧/ ٧١ - ٧٤ .

قيل له : قد قُتل ، فتقدم وهو يقول : لا إله إلا الله ، فقاتل حتى قتل .
وذكر أنه قال لأمه بعد عودته من الحج : ادعي الله أن يرزقني
الشهادة .

ومن ذكر الطبري محمد بن عبد الله بن حوذان : قال عنه :
فحمل سبع مرات يقتل في كل مرة رجلا . ثم رجع إلى موقفه فهابه
من كان في ناحيته ، فناداه ترجمان للعدو : يقول لك الملك : لا تُقبل
وتحول إلينا فنرفض صنمنا الذي نعبد ونعبدك ، فقال محمد : أنا
أقاتلكم لتركوا عبادة الأصنام وتعبدوا الله وحده فقاتل واستشهد (١) .

وهكذا كان غناء هذا البطل المجاهد عن كتيبة من المقاتلين لفرط
شجاعته وإقدامه ، فلهذا كان الأعداء الذين هم بناحيته يهابون الإقدام
على تلك الناحية وكأنهم يجابهون - بشخص هذا المجاهد - كتيبة
كاملة ، ولقد ناداه الأعداء بذلك العرض الكبير لينحاز إليهم حتى
يفقد المسلمون به الرجل القوي الشجاع الذي حمى ناحيته من
الأعداء ، ولكنه أجابهم بما يملؤ قلوبهم حسرة ، وذلك حينما بين لهم
الهدف العالي الذي يقاتل من أجله المسلمون ولقد ظفر - رحمه الله -
بالشهادة التي هي أفضل نهاية .

ومن ذكر الطبري النضر بن راشد العبدى ، وكان دخل على
امراته والناس يقتتلون فقال لها : كيف أنت إذا أتيت بأبي ضمرة (٢)
في لبد (٣) مضرجا بالدماء ؟ فشقت جيها ودعت بالويل ، فقال :

(١) تاريخ الطبري ٧٤ / ٧ .

(٢) يعني نفسه فهذه كتيبة .

(٣) اللبد البساط .

حسبك ، لو أَعَوَّلْتُ عَلَيَّ كُلَّ أَنْثَى لَعَصَيْتَهَا شَوْقًا إِلَى الْحُورِ الْعَيْنِ ،
وَرَجَعَ فَقَاتَلَ حَتَّى اسْتَشْهَدَ رَحِمَهُ اللَّهُ (١) .

وهكذا رأينا شوق هذا المجاهد النبيل إلى الشهادة في سبيل الله تعالى ، حيث لم يثنه عن الإقدام على الجهاد بكاء امرأته الشديد على فقده ، ولقد قارن بين متعة الدنيا ونعيم الآخرة فأبان أنه لو جُمِعَ له متاع الدنيا كله لم يعدل ما أعدّه الله سبحانه للشهداء من الحور العين ، فضلا عما هو أعظم من ذلك من النعيم .

هذا وقد ذكرنا سابقا أن المسلمين التقوا بالترك وكان المسلمون بقيادة الجُنَيْد بن عبد الرحمن المُرِّي ، والترك بقيادة خاقان ، وأن عدد المسلمين كان أقل من الترك بكثير ، ومع ذلك ثبتوا لهم إلى أن تحاجزوا وأوقفوا المعركة .

لكن خاقان عاد بجيشه بعد ذلك بيوم وفي ذلك يقول الإمام الطبري في سياق روايته : وكانوا لقوا خاقان يوم الجمعة ، فأرسل الجنيد إلى عبد الله بن معمر بن سُمَيْرٍ اليشكري أن يقف في الناحية التي تلي « كِسَّ » ويحبس من مرَّ به ويحوز الأثقال والرجالة ، وجاءت الموالي رجالة ليس فيهم غير فارس واحد ، والعدو يتبعونهم ، فثبت عبد الله بن معمر للعدو فاستشهد في رجال من بكر .

قال : فأصبحوا يوم السبت (٢) ، فأقبل خاقان نصف النهار ، فلم ير موضعا للقتال فيه أيسر من موضع بكر بن وائل ، وعليهم زياد بن

(١) تاريخ الطبري ٧٤/٧ - ٧٥ .

(٢) يعني جيش المسلمين .

الحارث ، فقصد لهم فقالت بكر لزياد : القوم قد كثرونا فخلّ عنا نحمل عليهم قبل أن يحملوا علينا ، فقال لهم : قد مارست منذ سبعين سنة ، إنكم إن حملتم عليهم فصعدتم انهزمتم ، ولكن دعوهم حتى يقربوا ، ففعلوا ، فلما قربوا منهم حملوا عليهم فأخرجوا لهم ، فسجد الجنيد ، وقال خاقان يومئذ : إن العرب إذا أخرجوا استقتلوا فخلّوهم حتى يخرجوا ، ولا تعرّضوا لهم فإنكم لا تقومون لهم .

قال : وخرج جوار للجنيد يؤكّلون ، فانتدب رجال من أهل الشام فقالوا : الله الله يا أهل خراسان : إلى أين : وقال الجنيد : ليلة كليلة الجراح ويوم كيومه (١) .

ففي هذا الخبر مواقف منها : أولاً ثبات عبد الله بن معمر الشكري ومن معه من المسلمين لجيش يفوقهم كثيرا إلى أن استشهد في رجال معه رحمهم الله تعالى .

وثانياً : موقف ثبات لبني بكر بقيادة زياد بن الحارث حيث صمدوا لجيش خاقان ، وفي كلام خاقان اعتراف للمسلمين بالشجاعة والإقدام حيث أوصى جيشه بأن لا يصمدوا للمسلمين لأنهم لا يستطيعون ذلك .

وقول الجنيد « ليلة كليلة الجراح ويوم كيومه » يريد بذلك الجراح ابن عبد الله الحكمي فارس أهل الشام وأمير أرمينية وقد انتصر على الروم والترك في وقائع عديدة إلى أن أفرد في قلة من جيشه فهجم عليه الترك فقتلوه و من معه ، وذلك في العام نفسه الذي لقي فيه الجنيد خاقان والترك .

(١) تاريخ الطبري ٧/ ٧٥ .

جهاد أسد القسري :

توفي الجنيد بن عبد الرحمن رحمه الله وتولى إمرة خراسان عاصم بن عبد الله الهلالي ، ثم تولاهما بعده أسد بن عبد الله القسري ، وقد عَبَّرَ بجيش المسلمين إلى بلاد ماوراء النهر ونزل بالْحُتْلَ ، وعلم به خاقان فأقبل بجنوده وحال بينهما نهر بلخ فعبر خاقان بعد أن قتل من لم يعبر من المسلمين وأسر بعضهم ، وقد كان أسد أرسل الأتقال وهي الدواب والأطعمة ونحوها أمامه ومعها حامية بقيادة إبراهيم بن عاصم العُقيلي الجزري فعلم بذلك خاقان فمال عن جيش المسلمين يريد أخذ الأتقال لأنها لا تكلفه قتالاً كبيراً .

واستشار أسد أهل الرأي فوقع الرأي على المسير نحو الأتقال لحمايتها ومن معها ، وقد كان أسد أرسل رسولا إلى إبراهيم بن عاصم يخبره بذلك فوصل إليه وعمل إبراهيم خندقاً للحماية ، وقد وصل إليه خاقان بجيشه وكانت بينهم مناوشة انتصر فيها المسلمون ، ثم أطلع خاقان على مكان صالح للهجوم من خلف المسلمين فهجم عليهم وحاز أثقالهم وانحازوا عنه ، ثم انصرف عنهم خاقان حينما رأى جيش المسلمين مقبلاً بقيادة أسد القسري (١) .

وفي هذا الخبر موقف يذكر لإبراهيم بن عاصم الجزري ومن معه من المسلمين حيث صدوا هجوم الترك رغم قلة المسلمين .

وموقف يُذكر لأسد بن عبد الله القسري حيث عزم على المسير

(١) تاريخ الطبري ١١٣/٧ - ١١٨ باختصار ، وذلك في سنة تسع عشرة ومائة .

لإنقاذ المسلمين الذين كانوا يحمون الأثقال فأغذَّ السير حتى وصل إليهم في الوقت المناسب فأنقذهم الله تعالى به .

المعركة الأخيرة مع خاقان :

يقول الإمام الطبري : فلما كان ليلة الأضحى قيل لأسد^(١) : إن خاقان نزل « جَزَّة » ، فأمر بالنيران فَرُفِعَتْ على المدينة^(٢) فجاء الناس من الرساتيق إلى مدينة « بَلْخ » فأصبح أسد فصلى وخطب الناس وقال : إن عدو الله الحارث بن سُرَيْج^(٣) استجلب طاغيته^(٤) ليطفئ نور الله ويبدل دينه والله مُذْلَهُ إن شاء الله ، وإن عدوكم الكلب أصاب من إخوانكم من أصاب ، وإن يرد الله نصركم لم يضركم قلتكم وكثرتهم ، فاستنصروا الله ، وقال : إنه بلغني أن العبد أقرب مايكون إلى الله إذا وضع جبهته لله ، وإني نازل وواضع جبهتي ، فادعوا الله واسجدوا لربكم وأخلصوا له الدعاء ، ففعلوا ، ثم رفعوا رؤوسهم وهم لا يشكُّون في الفتح ، ثم نزل عن المنبر ، وضحي وشاور الناس في المسير ، فقال قوم : أنت شاب ولست ممن تخوف من غارة ، على شاة ودابة تخاطر بخروجك ! قال : والله لأخرجن ، فإما ظفر وإما شهادة ، قال : وقال قوم : بل تخرج إليهم وتستنصر

(١) يعني أسد بن عبد الله القسري أمير خراسان .

(٢) وذلك علامة على نداء أهل القرى المجاورة للتجمع ، وكان أسد قد نزل مدينة بلخ فأمر بالتجمع للجهاد .

(٣) هو من العرب المسلمين ولكنه ارتد على عقبه وتمرد على دولة الإسلام وحالف طغاة الكفار ضد المسلمين .

(٤) يعني خاقان .

الله عليهم ، فوافق قولهم رأي أسد وماكان عزم عليه من لقائهم .
قال : ثم خرج فنزل باباً من أبواب بلخ وضربت له قبة «فازتان»^(١)
وألصق إحداهما بالأخرى ، وصلى بالناس ركعتين طولهما ، ثم
استقبل القبلة ونادى في الناس : ادعوا الله وأطال في الدعاء ، ودعا
بالنصر ، وأمن الناس على دعائه ، فقال : نصرتم ورب الكعبة ثم
انفتل من دعائه فقال : نصرتم ورب الكعبة إن شاء الله ، ثلاث
مرات ، ثم نادى مناديه : برئت ذمة الله من رجل حمل امرأة ممن كان
من الجند .

قال : فنظر فإذا جارية على بعير ، فقال : سلوا لمن هذه الجارية؟
فذهب بعض الأساورة فسأل ثم رجع فقال : لزياد بن الحارث البكري
- وزياد جالس - فقطب أسد وقال : لاتنتهون حتى أسطو بالرجل
منكم يكرّم علي فأضرب ظهره وبطنه ، فقال زياد : إن كانت لي فهي
حرة ، لا والله أيها الأمير مامعي امرأة فإن هذا عدو حاسد .

قال : ثم ارتحل وعلى مقدمته سالم بن منصور البجلي في
ثلاثمائة ، فلقي ثلاثمائة من الترك طليعة خاقان ، فأسر قائلهم
وسبعة منهم معه وهرب بقيتهم ، فأتى به أسداً ، قال : فبكي
التركي ، قال : مايبيك ؟ قال : لست أبكي لنفسي ولكني أبكي لهلاك
خاقان قال : كيف ؟ قال : لأنه قد فرق جنوده فيما بينه وبين مرو .

ثم ذكر التقاء الجيشين . إلى أن قال : فلما التقوا حمل الحارث^(٢)

(١) يعني خيمتين من خيام الجيش .

(٢) يعني ابن سريح الذي كان مع خاقان .

ومن معه من أهل السُغد والبابية وغيرهم على المسيرة وفيها ربيعة وجُندان من أهل الشام فهزّمهم فلم يردّهم شيء دون رواق أسد، فشَدَّت عليهم الميمنة - وهم الأزد وبنو تميم والجوزجان - فما وصلوا إليهم حتى انهزم الحارث والأترّك، وحمل الناس جميعاً، فقال أسد: اللهم إنهم عصوني فانصرهم، وذهب الترك في الأرض عباديد^(١) لا يلوون على أحد، فنبعهم الناس مقدار ثلاثة فراسخ يقتلون من يقدرّون عليه، حتى انتهوا إلى أغنامهم فاستاقوا أكثر من خمس وخمسين ومائة ألف شاة وداوب كثيرة.

أما خاقان فإنه فر هارباً ومعه الحارث بن سريج يحميه، وكانت نهاية خاقان على يد أحد قادته وهو كورصول الترقشي، حيث لعب هو وإياه بالنرد فهده خاقان بقطع يده، فتنحّى كورصول، وجمع جمعا من أصحابه فبيّت خاقان فقتله^(٢).

وبعد ففي هذا الخبر مواقف عالية، فمنها عزم أمير خراسان أسد ابن عبد الله القسري على غزو خاقان والترك، وما كان يتحلّى به هذا الأمير من الشجاعة وقوة الأمل بالنصر على الأعداء مع ماسبق منهم من الإيقاع بالمسلمين والإضرار بهم.

ومن مواقفه في ذلك ماجاء في خطبته الرائعة يوم عيد الأضحى التي اشتملت على الخضوع لله تعالى واللجوء إليه وطلب النصر منه، في حال مؤثّرة جعلت أفراد الجيش يرفعون رؤوسهم من السجود وهم

(١) أي متفرقين في كل وجه.

(٢) تاريخ الطبري ١١٩/٧ - ١٢٥ باختصار.

لا يشكُّون في النصر ، وبهذا الدعاء الخاشع رفع من معنويتهم وأقدم بهم على أعدائهم وهم واثقون من نصر الله تعالى ، ثم ماجاء في دعائه الطويل بعد ذلك يوم أن التقى الصفَّان ، وانصرافه من الدعاء وهو يبشرهم بالنصر على الأعداء ، وكل ذلك يدل على قوة إيمانه وغزارة علمه بالله تعالى ، حيث ركَّز على أهم عوامل النصر وهو التوكل على الله جل وعلا .

ومن المواقف المذكورة في هذه المعركة ثبات أهل الميمنة من تميم والأزد ومن معهم حتى هزموا الأعداء بالرغم مما حصل على ميسرة المسلمين من الهزيمة ، حيث لم يفت ذلك في أعضاد بقية الجيش ، وهذا من أسرار عظمة المسلمين في جهادهم حيث لا يؤثر فيهم قتل قادتهم ولا هزيمة بعضهم لأنهم إنما يقاتلون غالباً طلباً لإحدى الحسنيين ، إما النصر على الأعداء أو الشهادة في سبيل الله تعالى .

وهذا الثبات القبوي من الميمنة دفع بقية الجيش إلى الإقدام على الأعداء حتى سحقوهم وشتتوا جمعهم .

وفي نهاية خاقان عبر عظيمة حيث تم قتله على يد أحد قادته المقربين إليه ، ومن هذه العبر أن الكفار مهما بلغ من تناصرهم فإن هدفهم هو جلب المصالح لأنفسهم وليس لديهم مبادئ سامية تحكمهم فإذا كانت مصالحهم في الاجتماع اجتمعوا على أعدائهم وإذا تعرضت مصالحهم الذاتية للخطر ضحى بعضهم ببعض وتفرقوا .

ومن ذلك سوء النتائج التي تترتب على اللعب بالنرد ونحوه حيث ينتج عن ذلك العداوة والبغضاء التي قد يكون من نتائجها ذهاب مصالح أمة كما في هذا الخبر .

ومن ذلك أن الأعداء لا يجمعهم مبادئ سامية وإنما يجمعهم شخصية قائد قوي يخضعون له فإذا ذهب ذلك القائد تفرق أتباعه وتناحروا فيما بينهم كما حصل لأتباع خاقان حيث لم تقم لهم بعده قائمة ، أما المسلمون فإنهم يمتازون على غيرهم بأن الذي يجمعهم هو سلطان الدين وليس للقائد في نظرهم وجود كبير ولا أثر مصيري فإذا هلك قائدهم فإن خلفه قادة يقومون بالأمر بعده ويسيرون على نفس المنهج ، ولو فرض أنهم تفرقوا بعد موت القائد أثناء المعركة فإنه تفرق مؤقت لأن الذي ألف بين قلوبهم وجمعهم هو الخضوع للدين والدين لا يموت .

وهذا من الأسباب الأساسية في تماسك المسلمين وبقائهم تلك القرون العديدة يهيمنون على أكثر بلاد العالم .

* * *

الجهاد في المشرق

في

عهد العباسيين

انتفاض أمير طبرستان وجهاده :

قال الإمام أبو جعفر محمد بن جرير الطبري في هذه السنة (١) نقض إصبهذ طبرستان العهد بينه وبين المسلمين ، وقتل من كان يبلاده من المسلمين .

وذكر أن أبا جعفر (٢) لما انتهى إليه خبر الإصبهذ وما فعل بالمسلمين ، وجه إليه خازم بن خزيمة وروح بن حاتم ومعهم مرزوق أبو الخصيب مولى أبي جعفر ، فأقاموا على حصنه محاصرين له ولمن معه في حصنه ، وهم يقاتلونهم حتى طال عليهم المقام ، فاحتال أبو الخصيب في ذلك فقال لأصحابه : اضربوني واحلقوا رأسي ولحيتي ، ففعلوا ذلك به ، ولحق بالإصبهذ صاحب الحصن فقال له : إني ركب مني أمرٌ عظيم ، ضربتُ وحلق رأسي ولحيتي . وقال له : إنما فعلوا ذلك بي تهمةً منهم لي أن يكون هواي معك ، وأخبره أنه معه ، وأنه دليل له على عورة عسكرهم . فقبل منه ذلك الإصبهذ ، وجعله في خاصته والطفه .

وكان باب مدينتهم من حجر يلقى إلقاءً يرفعه الرجال ، وتضعه عند فتحه وإغلاقه ، وكان قد وكل به الإصبهذ ثقات أصحابه ، وجعل ذلك نوباً بينهم ، فقال له أبو الخصيب : ما أراك وثقت بي ، ولا قبلت نصيحتي ا قال : وكيف ظننتَ ذلك ؟ قال : لتركك الاستعانة بي فيما يعنيك ، وتوكيلي فيما لا تثق به إلا بثقاتك ، فجعل

(١) يعني سنة اثنتين وأربعين ومائة .

(٢) يعني أمير المؤمنين أبا جعفر المنصور .

يستعين به بعد ذلك ، فيرى منه ما يحبّ إلى أن وثق به ، فجعله فيمن ينوب في فتح باب مدينته وإغلاقه ، فتولّى له ذلك حتى أنس به . ثم كتب أبو الخصيب إلى رَوْح بن حاتم وخازم بن خزيمة ، وصيّر الكتاب في نُشابة ، ورماها إليهم ، وأعلمهم أن قد ظفر بالحيلة ، ووعدهم ليلة سَمّاها لهم في فتح الباب .

فلما كان في تلك الليلة فتح لهم ، فقتلوا من فيها من المقاتلة ، وسبوا الذراري ، وظفر بالبحترية ، وهي أم منصور بن المهدي ، وأمها باكند بنت الإصبهذ الأصمّ - وليس بالإصبهذ الملك ، ذاك أخو باكند - وظفر بشكلة أم إبراهيم بن المهديّ ، وهي بنت خونادان قهرمان المصمّغان ، فمَصّ الإصبهذ خاتماً له فيه سم فقتل نفسه (١) .

هذا الخبر فيه بيان خدعة حربية عالية قام بها مرزوق أبو الخصيب مولى أمير المؤمنين أبي جعفر المنصور ، وقد استطاع أن يقوم بتلك الخدعة لكونه في الأصل من أهل تلك البلاد ، وهذه تضحية كبيرة من أبي الخصيب لما قد يترتب على ذلك الأمر الذي أقدم عليه من عدم تصديق الأعداء له ووقوعه في أسرهم ، ولكنه قد استعد لاحتمال أسوأ النتائج في سبيل خدمة الإسلام والمسلمين ، وهذا يدل على إخلاصه وقوة إيمانه .

خروج أستاذيس ومن تبعه وجهادهم :

قال الإمام محمد بن جرير الطبري : فمّا كان فيها (٢) من ذلك

(١) تاريخ الطبري ٥١٢/٧ - ٥١٣ .

(٢) أي في سنة خمسين ومائة .

خروج أستاذسيس في أهل هراة وباذغيس وسجستان وغيرها من عامة خراسان ، وساروا حتى التقوا هم وأهل مَرَوَالرُود ، فخرج إليهم الأَجْثَم المَرُورُودِيّ في أهل مَرَوَالرُود ، فقاتلوه قتالا شديداً حتى قتل الأَجْثَم ، وكثر القتل في أهل مَرَوَالرُود ، وهزم عدة من القواد، منهم معاذ بن مسلم بن معاذ وجبرئيل بن يحيى وخماد بن عمرو وأبو النجم السجستاني وداود بن كراز ، فوجه المنصور وهو بالبردان خازم ابن خزيمة إلى المهدي، فولاه المهدي محاربة أستاذسيس، وضمّ القواد إليه .

وذكر أن القائد خازم بن خزيمة اختلف عليه قادة جيشه بتحريض من وزير المهدي معاوية بن عبيد الله، فقدم خازم على المهدي وشكا إليه ذلك فأفردته بالقيادة والتصرف ، قال : فانصرف خازم إلى عسكره، فعمل برأيه، وحل لواء من رأى حل لوائه من القواد، وعقد لواء لمن أراد، وضمّ إليه من كان انهزم من الجنود، فجعلهم حشواً يكثربهم من معه في أخريات الناس ، ولم يقدمهم لما في قلوب المغلوبين من روعة الهزيمة ، وكان من ضم إليه من هذه الطبقة اثنين وعشرين ألفا ، ثم انتخب ستة آلاف رجل من الجند، فضمهم إلى اثني عشر ألفا كانوا معه متخيرين ، وكان بكّار بن مسلم العقيلي فيمن انتخب ، ثم تعباً للقتال وخندق . واستعمل الهيثم بن شعبة بن ظهير على ميمنته ، ونهار بن حصين السعديّ على ميسرته، وكان بكار بن مسلم العقيلي على مقدمته وتُراَرُخُدا على ساقته، وكان من أبناء ملوك أعاجم خراسان ، وكان لواءه مع الزُّبَرْقان وعلمه مع مولاه بَسّام، فمكر بهم وراوغهم في تنقله من موضع إلى موضع وخندق إلى

خندق حتى قطعهم ، وكان أكثرهم رجالة ، ثم سار خازم إلى موضع فتزله ، وخندق عليه ، وأدخل خندقه جميع ماأراد ، وأدخل فيه جميع أصحابه ، وجعل له أربعة أبواب ، وجعل على كل باب منها من أصحابه الذين انتخب ، وهم أربعة آلاف ، وجعل مع بكار صاحب مقدمته ألفين ، تكملة الثمانية عشر ألفا . وأقبل الآخرون ومعهم المروز والفؤوس والزبل ، يريدون دفن الخندق ودخوله ، فأتوا الخندق من الباب الذي كان عليه بكار بن مسلم ، فشدوا عليه شدة لم يكن لأصحاب بكار نهاية دون أن انهزموا حتى دخلوا عليهم الخندق .

فلما رأى ذلك بكار رمي نفسه ، فترجل على باب الخندق ثم نادى أصحابه وقال : من قبلي يؤتى المسلمون ! فترجل من معه من عشيرته وأهله نحو من خمسين رجلا ، فمنعوا بابهم حتى أجلوا القوم عنه ، وأقبل إلى الباب الذي كان عليه خازم رجل كان مع أستاذسيس من أهل سجستان ، يقال له الحريش ، وهو الذي كان يدبر أمرهم ، فلما رآه خازم مقبلا بعث إلى الهيثم بن شعبة ، وكان في الميمنة : أن اخرج من بابك الذي أنت عليه ، فخذ غير الطريق الذي يوصلك إلى الباب الذي عليه بكار ، فإن القوم قد شغلوا بالقتال وبالإقبال إلينا ، فإذا علوت فجزت مبلغ أبصارهم فأتهم من خلفهم . وقد كانوا في تلك الأيام يتوقعون قدوم أبي عون وعمرو بن سلم بن قتيبة بن طخارستان . وبعث خازم إلى بكار بن مسلم : إذا رأيت رايات الهيثم بن شعبة قد جاءتك من خلفك فكبروا وقولوا : قد جاء أهل طخارستان . ففعل ذلك أهل الهيثم ، وخرج خازم في القلب على الحريش السجستاني ، فاجتلدوا بالسيوف جلاداً شديداً ، وصبر بعضهم لبعض ،

فبينما هم على تلك الحال إذ نظروا إلى أعلام الهيثم وأصحابه ، فتنادوا فيما بينهم : جاء أهل طخارستان ، فلما نظر أصحاب الحريش إلى تلك الأعلام ، ونظر من كان بإزاء بكار بن مسلم إليها ، شد عليهم أصحاب خازم فكشفوهم ، ولقيهم أصحاب الهيثم ، فطعنوهم بالرماح ، ورموهم بالنشاب ، وخرج عليهم نهار ابن حصين وأصحابه من ناحية الميسرة ، وبكار بن مسلم وأصحابه من ناحيتهم ، فهزموهم ووضعوا فيهم السيوف ، فقتلهم المسلمون وأكثروا ، فكان من قتل منهم في تلك المعركة نحواً من سبعين ألفاً ، وأسروا أربعة عشر ألفاً ، ولجأ أستاذسيس إلى جبل في عدة من أصحابه يسيرة ، فقدم خازم الأربعة عشر ألف أسير ، فضرب أعناقهم ، وسار حتى نزل بأستاذسيس في الجبل الذي كان لجأ إليه ، ووافى خازماً بذلك المكان أبو عون وعمرو بن سلم بن قتيبة في أصحابهما ، فأنزلهم خازم ناحية ، وقال : كونوا مكانكم حتى نحتاج إليكم . فحصر خازم أستاذسيس وأصحابه حتى نزلوا على حكم أبي عون ، ولم يرضوا إلا بذلك ، فرضي بذلك خازم ، فأمر أبا عون بإعطائهم أن ينزلوا على حكمه ، ففعل ، فلما نزلوا على حكم أبي عون حكم فيهم أن يؤثق أستاذسيس وبنوه وأهل بيته بالحديد ، وأن يعتق الباقون وهم ثلاثون ألفاً ، فأنفذ ذلك خازم من حكم أبي عون ، وكسا كل رجل منهم ثوبين ، وكتب خازم بما فتح الله عليه ، وأهلك عدوه إلى المهدي ، فكتب بذلك المهدي إلى أمير المؤمنين المنصور ^(١) .

(١) تاريخ الطبري ٢٩/٨ - ٣٢ .

فهذا الخبر فيه مواقف منها :

أولاً : ماكان من قائد الجيش خازم بن خزيمة حينما أدرك الخلل في تنظيم عسكره فتلافى ذلك قبل مواجهة الأعداء وأصلح ماكان بحاجة إلى إصلاح ، وهذا يدل على وعي قيادي ، لأن من أهم أسباب النصر طاعة القائد وحسن اختيار الأعوان .

ثانياً : ماقام به من المكر بالأعداء ومراوغتهم حيث صار ينتقل من موضع إلى موضع فكان ذلك سببا في تفرق جيش الأعداء ، لأن أكثرهم مشاة فحركتهم في التنقل بطيئة .

ثالثاً : ماقام به من إقامة الخندق حول جيش المسلمين ، وهذا أمر ضروري فيما إذا كان الجيش في بلاد الأعداء ، فمن المحتمل أن يأتوا من كل جهة ، فيكون الخندق وسيلة دفاعية حتى يتدبر القائد الخطط الحربية المناسبة .

رابعاً : موقف لبيكار بن مسلم العقيلي حينما ثبت لما فر جنوده ، فحفظ الباب الذي وكل به هو ومن ساعده من رجال عشيرته ، وهذا أثر من آثار حسن اختيار القادة ، فلو كان مثل جنوده في الهلع والدهشة لفر معهم ولدخل الأعداء من ذلك الباب .

خامساً : في هذا الخبر خطة حربية بارعة وضعها قائد الجيش خازم بن خزيمة ، حيث خطط لمباغطة الأعداء من خلفهم مع الهجوم عليهم من الأمام وإيهامهم بوصول مدد جديد للمسلمين ، فكان ذلك سببا في هزيمتهم ، وهكذا تظهر نتائج الرأي السديد في الحرب ، حيث يوفر القائد ذو الرأي الحصيف والتفكير المبدع جهوداً كبيرة على

المسلمين في إنهاء الحروب لصالحهم بأقل التضحيات .

سادسًا : موقف قيادي ناجح من خازم بن خزيمة ، حيث قبل حكم أبي عون بإعتاق جنود الأعداء بعد القبض على قائدهم وأقاربه ، لأن في ذلك تأليفاً لأولئك الجنود ، وقد أضاف إلى ذلك موقفاً إنسانياً نبيلاً ، وذلك بكسوة كل جندي من هؤلاء ثوبين ، وإذا علمنا أن عددهم ثلاثون ألفاً يكون قد أنفق عليهم ستين ألف ثوب ، وهذا يقتضي صرف مبلغ كبير من المال ، ولاشك أن لهذا الموقف من أبي عون ثم من خازم أثراً على أولئك الجنود ، حيث سيكونون عوناً للمسلمين في المستقبل ، أو على الأقل سيسلكون سبيل السلامة فيأمن المسلمون شرهم .



فهرس الجزأين الثالث عشر والرابع عشر

الصفحة	الموضوع
٥	المقدمة
٩	مواقف وعبر في جهاد المسلمين مع الروم
١١	الجهاد مع الروم في عهد الأمويين
١٤	- جهاد الروم في عهد معاوية
١٤	- الغزوات الأولى
١٤	- غزوة القسطنطينية
١٧	- جهاد الروم في عهد عبد الملك والوليد
١٧	- الاستعداد لغزو الروم في عهد عبد الملك
٢٥	- خبر الفتية الثائبين وفتح طوانة
٤٥	- فتح عمورية
٤٧	- فتح نفقورية
٥٠	- فتح السماوة الكبرى
٥٤	- فتح مدينة المسيحية
٥٧	- فتح مدينة بدروق
٥٩	- جهاد الروم في عهد سليمان بن عبد الملك
٥٩	- محاصرة القسطنطينية
٦٤	- جهاد الروم في عهد هشام بن عبد الملك
٦٧	- الجهاد مع الروم في عهد العباسيين
٧١	- جهاد الروم في عهد المهدي والرشد
٧١	- غزوة القسطنطينية

الموضوع	الصفحة
- فتح هرقل الأول	٧٢
- فتح هرقل الثاني ومآحولها	٧٥
- جهاد الروم في عهد المعتصم	٧٨
- فتح عمورية	٨١
- جهاد السلطان ألب أرسلان	٨٧
- معركة ملاذكرد	٨٧
- الجهاد مع الروم في عهد العثمانيين	٩٣
- نشأة هذه الدولة	٩٥
- فتح القسطنطينية	٩٩
- خطط حرية ناجحة	١٠١
- الهجوم الأخير	١٠٣
- فتح مدينة بلغراد	١٠٤
- فتح جزيرة رودس	١٠٥
- إنقاذ تونس من النصارى	١٠٦
- جهاد المتمردين في بلاد الأفلاق	١٠٨
- مواقف وعبر في جهاد المسلمين في بلاد السند والهند	١١٣
- الجهاد والفتوحات في عهد الأمويين	١١٥
- نبذة عما سبق من الأحداث	١١٧
- الجهاد في السند في عهد معاوية رضي الله عنه	١٢٢
- الجهاد في السند في عهد عبد الملك وابنه الوليد	١٢٥
- ولاية سعيد الكلابي على السند	١٢٥
- ولاية مجاعة التميمي	١٢٥

- ولاية محمد النمري على مكران ١٢٦
- حملة محمد بن القاسم وفتح السند ١٢٨
- فتح مدينة النيرون ١٣٤
- فتح إقليم سيوستان ١٣٥
- المعركة الفاصلة مع ملك السند ١٣٧
- فتح مدينة راور ١٥٢
- فتح بهرور ودهليلا ١٥٤
- انضمام الوزير سياكر إلى المسلمين ١٥٤
- فتح إقليم برهمناباد ١٥٥
- احتواء القبائل المتوحشة ١٥٨
- فتح مدينة أرور ١٥٩
- فتح مدينة باتيه ١٦١
- فتح مدينة اسكلنده ١٦٢
- فتح قلعة سكة ١٦٣
- فتح مدينة الملتان ١٦٤
- فتح إقليم الكيرج ١٦٦
- نهاية محمد بن القاسم ١٦٦
- الجهاد في السند في عهد هشام بن عبد الملك ١٧٠
- ولاية الجنيد المري على السند ١٧٠
- ولاية الحكم الكلبي ١٧٢
- ولاية عمرو بن محمد بن القاسم ١٧٣
- الجهاد والفتوحات في عهد العباسيين ١٧٥

١٧٧	- الجهاد في الهند في عهد المهدي
١٧٩	- جهاد محمود بن سبكتكين في بلاد الهند
١٨٠	- جهاده مع جييال ملك الهند
١٨١	- جهاده مع بيدبا
١٨٢	- جهاده في بلاد الغور
١٨٤	- جهاده في وسط الهند
١٨٥	- جهاده في بلاد تانيشر
١٨٦	- جهاده في بلاد قشмир
١٨٨	- جهاده في مملكة كجورامه
١٩١	- جهاده في بلاد أخرى
١٩٢	- جهاده في سومنات
١٩٨	- من مواقفه في الإصلاح والعدل
٢٠١	- جهاد مسعود بن محمود وابناه
٢٠٥	- الجهاد والفتوحات بعد العباسيين
٢٠٧	- جهاد السلطان محمد البهمني
٢١٢	- جهاد السلطان محمود الكجراتي
٢١٨	- جهاد السلطان بابر
٢٢٠	- جهاد السلطان عالمكير
٢٢٤	- جهاد السلطان أحمد الدراني
٢٣٣	- مواقف وعبر في فتوح المغرب
٢٣٥	- فتوحات عبد الله بن سعد
٢٣٧	- فتوحات معاوية بن حديج

٢٤٠	- فتوحات عقبة بن نافع الأولى
٢٤١	- مغامرات في الصحراء
٢٤٣	- إنشاء مدينة القيروان
٢٥٠	- فتوحات أبي المهاجر
٢٥٥	- فتوحات عقبة الثانية
٢٦٢	- نهاية عقبة بن نافع
٢٦٦	- فتوحات زهير البلوي
٢٦٩	- نهاية زهير البلوي وأصحابه
٢٧١	- فتوحات حسان بن النعمان
٢٧١	- فتح قرطاجنة
٢٧٢	- معركة المسلمين الأولى مع الكاهنة
٢٧٥	- معركة المسلمين الثانية مع الكاهنة
٢٧٩	- فتوحات موسى بن نصير
٢٨٠	- جهود ابن نصير في إخضاع المتمردين
٢٨٢	- فتح مدينة طنجة
٢٨٢	- أعمال ابن نصير الإصلاحية
٢٨٦	- جهود ابن نصير في الجهاد البحري
٢٨٩	- مواقف وعبر في فتوح الأندلس
٢٩١	- جهاد طريف بن مالك
٢٩٢	- فتوحات طارق بن زياد
٢٩٣	- المعركة الفاصلة مع حاكم الأندلس
٢٩٧	- فتح عدد من مدن الأندلس

الموضوع	الصفحة
- فتوحات موسى بن نصير	٣٠٢
- جهاد ولاية الأندلس في أواخر العهد الأموي	٣٠٦
- معركة بلاط الشهداء	٣٠٦
- جهاد الدولة الأموية في الأندلس	٣٠٨
- من مواقف عبد الرحمن الداخل	٣٠٨
- رأي أبي جعفر المنصور بعبد الرحمن الداخل	٣١١
- مواقف هشام بن عبد الرحمن الجهادية والإصلاحية	٣١٣
- مواقف الحكم بن هشام الجهادية والإصلاحية	٣١٧
- من مواقفه الإصلاحية	٣٢٠
- مواقف عبد الرحمن الناصر الجهادية	٣٢٣
- غزوة مطونية	٣٢٣
- غزوة بلدة	٣٢٤
- غزوة مؤيش	٣٢٤
- غزوة طُرش	٣٢٦
- غزوة مؤنت رُوبي	٣٢٧
- غزوة بنبلونة	٣٢٨
- مواقف المنصور ابن أبي عامر الجهادية والإصلاحية	٣٣٠
- من مواقفه الإصلاحية	٣٣٣
- جهاد المرابطين في الأندلس	٣٤٠
- سبب جهاد المرابطين في الأندلس	٣٤١
- معركة الزلاقة	٣٤٢
- حصار حصن لَيْيط	٣٤٧

الموضوع	الصفحة
- عودة المرابطين إلى الجهاد	٣٤٨
- معركة إقليش	٣٤٩
- معركة إفراغة	٣٤٩
- مواقف وعبر في جهاد المسلمين في المشرق	٣٥١
- فتوح بلاد ماوراء النهر في عهد الأمويين	٣٥٣
- المحاولات الأولى للفتح	٣٥٥
- جهاد الحكم بن عمرو الغفاري	٣٥٥
- رحيل المسلمين إلى خراسان	٣٥٦
- جهاد عبيد الله بن زياد	٣٥٦
- جهاد سعيد بن عثمان بن عفان	٣٥٨
- جهاد عبيد الله بن أبي بكر	٣٥٩
- جهاد ابن الأشعث	٣٦٣
- جهاد المهلب بن أبي صفرة	٣٦٣
- فتوحات قتيبة بن مسلم	٣٦٦
- فتح مدينة بيكند	٣٦٨
- فتح مدينة بخارى	٣٧٣
- فتح مدينة سمرقند	٣٧٧
- فتح إقليمي الشاش وفرغانة	٣٨٥
- خضوع مملكة الصين للمسلمين	٣٨٨
- نبذة عن حياة قتيبة ونهايته	٣٩٢
- فتوحات يزيد بن المهلب	٣٩٤
- فتح جرجان	٣٩٤

الموضوع	الصفحة
- فتح طبرستان	٣٩٨
- فتح جرجان مرة أخرى	٤٠٠
- جهاد بعض القادة في أواخر عهد بني أمية	٤٠٤
- جهاد المسيب الرياحي	٤٠٤
- جهاد الجنيد بن عبد الرحمن المري	٤٠٩
- جهاد أسد القسري	٤١٦
- المعركة الأخيرة مع خاقان	٤١٧
- الجهاد في المشرق في عهد العباسيين	٤٢٣
- انتفاض أمير طبرستان وجهاده	٤٢٥
- خروج أستاذسيس وجهاده	٤٢٦